اصدار متميز

Special Edition

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

مجموعات قصصية

حكايات طبيب



Doctor's Tales

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا









دار الصحوة للنشر والتوزيع
Telefax: +202 42 10 60 60
Mobil:+20 1114520485
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

دكتور نجيب الكيلانى

حكايات طبيب

قصص

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ١٩١٢٨/٢٠١٢

الترقيم الدولي:

978-977-255-362-4



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب- السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmall.com

مقدمة

فى حياة الأطباء كثير من المواقف المثيرة، والتناقضات الغريبة، والحقيقة أن الطبيب يواجه النفس الإنسانية عن كثب، مثلما يواجه اضطرابات البدن بالفحص والتدقيق. . ومن البديهى أن الأطباء فى أى مكان على وجه الأرض، قديمًا وحديثًا، قد حاولوا أن يتعمقوا العلل الجسدية والنفسية وما يصاحب ذلك من آلام مبرحة، إنهم يقفون فى منطقة حساسة بين الموت والحياة. . يشهدون بأنفسهم الصراع الخالد، والمأساة الرهيبة، حيث يتجسد عجز الإنسان، وتثور مخاوفه، وحيث تتركز لحظات الحرمان، وانطفاء شعلة الحياة. .

والطبيب الفنان عندما يرصد تلك الوقائع كلها بقلب متعاطف، وعقل متفتح، يستطيع أن يصورها تصويراً إنسانيًا دقيقًا، فيساهم بذلك فى الكشف عن نوازع النفس الإنسانية، وسموقها وسقوطها، وقوتها وضعفها، وإيمانها وضلالها، إن الأمر عندئذ يبدو جديراً بالنظر والاهتمام؛ لأنه خطوة كبرى لمعرفة الذات، والعلاقات المختلفة التى تربطها بالوجود والناس والآمال. . .

ولقد كتب كثير من الأطباء تاريخ حياتهم، أو صوروا لطقات من أهم الأحداث التى مرت بهم، وتخطوا ذلك إلى البيئات التى عملوا بين ظهرانيها . .

والواقع أن هذه المجموعة من القصص تتميز عن غيرها بميزة مهمة، ألا وهى أنها مذكرات لكنها كتبت بأسلوب القصة الفنية القصيرة، حيث يتجلى الإطار الفنى الكلاسيكى بصورة ناجحة، وحيث الشخصيات المتنوعة الثرية، والحوار الحى المتدفق، والفكرة الأصيلة المتميزة، والسرد السلس الأخّاذ، هى إذن تجمع بين القصة والمذكرات . . فى ظل المفاهيم الإنسانية الراقية التى بعث الله بها أنبياءه ورسله . . فضلاً عن أن هذه القصص يربطها موضوع واحد تصول وتجول فى جنباته الظاهرة والخفية ألا وهى الأطباء والمرضى . . ولا نعتقد أن كتابًا فى المكتبة العربية، قد ظهر حتى الآن يحمل هذه المواصفات كلها . .

ويمكننا أن نقول إن قلم الدكتور نجيب الكيلانى قد استطاع بحمد الله أن يوفى الموضوع قدرًا كبيرًا من الحق، والحكم أولاً وأخيرًا للقارئ العزيز الذى نحرص دائمًا أن نقدم له ما نراه جديرًا بالقراءة والاهتمام.

الناشر

●●●

لحظة طيش

تنهدت «طبيبة النساء والولادة» فى ارتياح، وألقت «بالسماعة» جانبًا، ثم خلعت معطفها الأبيض، وهى تستشعر قدرًا كبيرًا من الرضى والسعادة، إن النجاح الذى تحققه كل يوم يثلج صدرها، كانت العيادة مكتظة اليوم بالمريضات، وهذا يعنى دخلاً لا بأس به، وشهرتها فى الحى الذى تعمل فيه على كل لسان، إنها صادقة وأمينة، كما أنها دقيقة فى عملها، وتلبى نداء المرضى فى أى وقت من أوقات الليل والنهار، إنها الحياة التى كانت تحلم بها، أن تؤدى رسالتها الإنسانية، وأن تعيش فى رخاء وسعة، وقد تحقق لها ذلك، بالإضافة إلى زوج طيب يعمل ضابطًا فى الجيش، وبنتين وولدين، لشد ما تشتاق الآن، بعد الجهد الذى بذلته صباحًا ومساء، إلى لقاء أسرتها السعيدة، والاستمتاع فى كنفها بالراحة والسكينة والحب الوارف . .

علقت المعطف الأبيض على المشجب، لكن الممرضة دلفت إليها قائلة :

- «معذرة يا دكتورة. . . لقد حضرت الآن مريضة. . » بدا على وجه الطبيبة ومضة من ضيق سرعان ما بددتها ابتسامتها التى تحرص عليها دائمًا، واستطردت الممرضة:

- «لقد لاحظت أنها حضرت أكثر من مرة الليلة. . لكنها كانت تختفى. . ثم تعود ثانية. . إنها قلقة. . مضطربة. . » سارت الطبيبة صوب المشجب، واستعادت معطفها ولبسته، وهى تقول:

- «أدخليها. . ».

كانت الفتاة شاحبة ترتسم على وجهها علامات الخوف، وفى عينيها نداء استغاثة يائسة، تعبث فى شعرها وأصابعها بعصبية ظاهرة. .

الطبيبة تعرف مثل هذه الأمور جيدًا، إن السنوات العشر التى قضتها فى المهنة، قد جعلتها ترى وتسمع العشرات من المآسى والحكايات المثيرة، أصبح من المألوف أن تشهد العجائب فى عيادتها هذه، تلك التى تشكل عالمًا غريبًا مليئًا بالأسرار والعجائب.

- «تفضلى يا ابنتى. . أرى معك كتبًا وكراسات. . » ترقرقت الدموع فى عينى الفتاة، وتمتمت بصوت جريح:

- «أنا طالبة فى كلية الآداب».

فحصتها الطبيبة بدقة، وقالت:

- «هل أنت متزوجة؟».

هبت الفتاة مذعورة من فوق سرير الفحص، ثم انتصبت واقفة، وقد ازداد شحوب وجهها واضطرابها، ثم هتفت:

- «لا.. هذه إهانة..».

قاستها الطبيبة بنظراتها الحانية، ثم اقتربت منها، وأخذت تربت على كتفها وشعرها وظهرها في حنان وتودد، واستدارت لتجلس خلف مكتبها، وهي تقول:

- «تعالى اجلسى إلى جوارى هنا يا فاتن..».

صرخت فاتن في شراسة:

- «بل سأخرج..».

نقرت الطبيبة على مكتبها في تفكير، وقالت بصوت خفيض يوحي بالثقة والعطف:

- «وأين تذهبين؟».

وصدمها السؤال، فعلاً أين تذهب بعذابها وأحزانها وقلقها؟؟ هل ستقصد طبيبة أخرى؟؟ وما الفرق بين هذه الطبيبة وغيرها؟؟ ربما تكون هذه أحنى من غيرها، والحياة في نظر فاتن أصبحت كئيبة مكفهرة تعسة، والعالم من حولها يضيق.. ويضيق حتى يكاد

يسحق صدرها، ويخنق أنفاسها، وهى كالغريق فى وسط الموج المتلاطم، لا تجد يداً تمتد إليها أو شاطئاً تلقى بجسدها المرهق المكدود على صدره. . . وليلها كله أرق وعذاب وكوابيس. . حتى إنها فكرت ذات مساء فى أن تضع حداً لحياتها. . وتموت لكنها لا تريد أن تموت. .

تطلعت الطبيبة إليها. . كانت «فاتن» ذات رونق أخّاذ، جمالها من ذلك النوع الذى يعلن عن نفسه فريداً متميزاً حتى لو كانت وسط ألف فتاة، ومزاجها يبدو شاعرياً ملتهباً، ومدت الطبيبة إليها يدها فى رفق:

- «تعالى يا حبيبتى. . نحن الطبيبات لا نفرط فى أسرار أحد. . وأنا امرأة مثلك. . نحن أخوات يا فاتن صدقينى. . اعتبرينى مثل أختك الكبيرة تماماً. . صرخت فى خوف:

- «أختى؟؟ لا. . لا. .».

ثم انفجرت فاتن باكية، كانت تذرف الدموع فى مرارة قاتلة، واحتضنتها الطبيبة فى أمومة خاشعة، فألقت الفتاة رأسها على كتف الطبيبة، وأخذت تنتحب. . وبعد فترة جففت «فاتن» عينيها المحتقنتين، وقالت فى صراحة وهى تواجه الموقف الصعب، بعد أن ملت الخوف والانتظار والتردد:

- «هل هناك حل؟؟».

قالت الطبيبة فى هدوء :

- «الحل أن تتزوجيه . . » .

انتفضت فاتن واقفة ، وقالت :

- «مستحيل» .

- «لماذا يا ابنتى» .

- «لأنه زوج أختى . . » .

- «يا إلهى . . » .

وهزت فاتن رأسها قائلة فى أسى عميق :

- «كنت متيقنة أننى لن أجد لديك حلاً . . لكنى أعرف طريقى . . لم يعد للحياة معنى . . إننا لم نخلق لنتعذب ونشقى . . الموت أفضل» .

فكرت الطبيبة ، إنها أمام مشكلة عويصة فعلاً ، لقد أصبح من المستحيل إجهاضها؟ لأن الحمل متقدم ، فضلاً عن أن الإجهاض عمل غير مشروع ، والزوج لا يستطيع أن يجمع بين الأختين ، وترك الأمر على ما هو عليه كارثة لاشك فيها ، وخاصة إذا ما انكشف المستور وعرفت الحقيقة ستتحطم أسرة بكاملها . . إن اتخاذ قرار فى مثل هذه الأمور صعب للغاية . . كيف يكون التصرف؟؟

وتمتمت «فاتن» قائلة :

- «لا شك أنك تريدين أن تعرفى الحقيقة. . آه. . لو كان الأمر بيدى اليوم لجلدت كل امرأة تختلط بالرجال. . ماذا أفعل؟؟ عندما دخلت الجامعة طلبت من أمى وأبى أن يدخلانى بيت الطالبات. . اعترض الجميع، وقالوا: لماذا لا تسكنين مع أختك وزوجها. . لا شك أنهما سيسهران على راحتك، ويهيئان لك الجو المناسب للاستذكار والأكل والنوم. . بالإضافة إلى أن هذا سيوفر علينا الكثير من المصروفات. . ووجدتها فكرة لا بأس بها. . وخاصة أن مسكنهما قريب من الكلية، ولن يكلفنى مشقة العناء فى المواصلات المزدحمة. . وتركت قريتنا الوادعة الآمنة. . وأتيت إلى المدينة. . لم يضايقنى فى البداية إلا بعض الخلافات اليومية بين أختى وزوجها. . أعترف أنها كانت شرسة ومغالية فى غضبها واحتجاجها ومطالبها. . وكنت أحاول أن ألعب دور حمامة السلام بينهما. . وألتمس لهما المعاذير. . إنها تعمل فى إحدى شركات القطاع العام صباحًا ومساءً. . وهو الآخر يعمل فى «المسرح» كموسيقار. . وكان يأخذنى من آن لآخر إلى المسرح. . كنت أرى حياة الممثلين والممثلات وأنا مشدوهة. . إنها عالم مثير. . لشد ما طربت وأنا أرى النجوم، وأتكلم معهم، وكنت أشعر أننى فى قمة السعادة وهم ينادوننى باسمى. . شىء لم أكن أحلم به. . ورأيتهم يمزحون. . ويلقون النكات البذيئة دون حرج. . ويتبادلون القبلات

عند إجراء التجارب المسرحية. . أو فى صالة الطعام. . وخلف الكواليس. . ويدخنون ويشربون. . كنت كمن يكتشف جزيرة جديدة. . وكثيراً ما كنت أبقى فى المسكن مع زوج أختى وحيدين. . لم أكن أتحفظ أو أتحرز. . أتحرك هنا وهناك بقميص نومى. . ونتحدث. . ونضحك. . ونلعب الورق. . ونتكلم فى الفن والمسرح. . ومغامرات النجوم. . وفضائح الوسط الفنى. . وأخبار الأفلام السينمائية. . وخفايا حياة الفن والفنانين. . قال لى ذات يوم:

- «إن وجهك «فوتو جينيك». . ».

- «ماذا تعنى يا ماهر؟».

- «أقصد أنك تصلحين نجمة سينمائية. . ».

- «قل كلامًا غير هذا. . ».

- «وصوتك. . ».

- «ماذا فيه هو الآخر. . ؟؟».

- «فيه رنة أسى شجية. . تجعلك فى قمة ممثلى الدراما. . ».

- «إنك تبالغ دائمًا يا ماهر. . إن مستقبلى معروف. . مجرد مدرسة. . وعلىَّ أن أنتظر فى طابور طويل بعد تخرجى، حتى يأتى دورى فى «القوى العاملة». . ».

وأمسك بيدى وهو يرمقنى بنظرات غريبة، ويقول:

- «أنت لا تعرفين قدر نفسك. . أنت موهبة مدفونة. .».

- «سمعت مثل هذا الكلام فى روايات كثيرة. .».

- «صدقينى. . تعالى نجرِ تجربة. .».

- «تجربة. .».

ووجدته يصب كأسين، ثم يعطينى أحدهما ويصر على أن أشرب، لقد رفضت بشدة، لكن إصراره وتشبثه بى ونظراته الجسورة كانت أقوى منى. . وشربت. . وأخذنا نمثل مشهداً من المشاهد التى شرحها لى. . وطال الوقت. . وتطورت الأمور. . ليت أختى عادت فى هذا اليوم. . لكنها تأخرت. . وها أنت يا سيدتى الطبيبة ترين النتيجة التعسة. . والمصيبة الكبرى أن بالكلية معيداً فى قسم اللغة الإنجليزية يطاردنى كل يوم. . إنه يحبنى. . أعرف ذلك. . ولا يعيبه أى شىء. .

عندئذ قاطعتها الطبيبة قائلة:

- «وأنت!! أتحبينه؟!».

شردت فاتن بنظراتها إلى بعيد، ودمعت عيناها وهى تقول:

- «إننى خاطئة. . والحب طهر وعفاف وثقة. . كيف أخدع

رجلاً شريفًا مثله؟؟ لقد جاء بعد فوات الأوان . . وإحساسى بالإثم يشدنى إلى الأرض . . إلى الأوحال . . » .

قالت الطبيبة :

- «إذن فأنت تحبينه» .

- «وما الفائدة يا سيدتى الطبيبة؟؟ إنه كالنجم البعيد الذى تفصله عنى مليون سنة ضوئية . . ليته جاء فى الوقت المناسب . . كيف أمحو هذا العار وهو لاصق بجسدى وروحى؟» .

وسادت فترة صمت قالت الطبيبة بعدها :

- «إننى أفكر فى حل بشرط . . » .

- «ما هو ؟؟» .

- «أن يشاركنا أحد من أهلك . . » .

اكتسى وجه فاتن الجميل بالرعب، وهتفت :

- «هذا من رابع المستحيلات . . أختى لا يمكن أن أعترف لها بما جرى . . أبى سيقتلنى لو عرف الحقيقة . . إخوتى نبتوا وعاشوا فى القرية . . ويا ويلى إن انكشف السر عما جرى . . » .

قالت الطبيبة فى هدوء وثقة :

- «وأمك؟؟» .

فغرت فاتن فاها فى دهشة، وقالت:

- «أمى؟؟».

- «نعم.. أنت لا تعرفين قلب الأم.. كل الضحايا يأتون هنا فى عيادتى مع أمهاتهن.. الأم نبع من الحنان لا ينضب..».

قالت فاتن فى حسرة:

- «ستتألم كثيرًا..».

- «لا بد أن يكون هناك ثمن لأخطائنا..».

- «وما ذنبها هى كى تحمل عنى الآلام والأحزان؟».

- «إنها أمك يا فاتن..».

•••

وقضت فاتن أيامًا وليالى رهيبة، كانت تقضى أوقاتها تائهة النظرات، مشتتة الفكر، لا تستسيغ للأكل طعمًا، ولا يهنأ لها نوم، وكانت تتحاشى النظر إلى وجه أختها وزوجها ولا تغادر غرفتها إلا للذهاب إلى الكلية، أو قضاء الحاجات الماسة، حاول ماهر مرارًا أن يناقشها الأمر، لكنها صدته فى عنف، وكان يطرق بابها فلا تفتحه، بل وتسبه.. وكان يوم حضور أمها شديد الوطأة عليهم جميعًا.. إنها لحظات لا يمكن لفاتن أن تنساها.. لشد ما بكت أمها ولطمت خدودها، ودقت رأسها فى الحائط.

فى أحد الأيام أدخلت «فاتن» عيادة الطبيبة لإجراء جراحة عاجلة، ولم يحضر فى هذا اليوم غير أمها، وسجلت فى الأوراق الرسمية أنها جراحة لاتصال الزائدة الدودية، ولذا لجأت الطبيبة لشق البطن شقًا طوليًا فى الوسط- وهو ما يحدث فى بعض الأحيان لإجراء هذه الجراحة- مع أن الأغلب أن يكون الشق فى ناحية الجانب الأيمن. . وبهذه الطريقة أمكن إجراء العملية «القيصرية» واستخراج الجنين حيًا. . وسرعان ما أخذته الأم، وذهبت به إلى حيث لا يعلم أحد. . حتى تتم تربيته والإشراف عليه. . . وبعد أن تم كل شيء جاء الأقارب ليعودوا المريضة فاتن. . .

وفى أحد الأيام، كانت تجلس على سرير المرضى تتصفح بعض المجلات الأسبوعية. . ووجدته قادمًا. . كان يحمل باقة من الورود الجميلة. . إنه المعيد الذى يعمل بقسم اللغة الإنجليزية. . لقد دخل فى احترام ووقار، وتمتم فى خجل:

- «لقد انقطعت عن الكلية، فقلقت من أجلك. . بحثت عن عنوانك فى السجل. . ذهبت لأسأل عنك، فعلمت أنك هنا. .».

ثم ابتسم، وقال:

- «قلت لنفسى. . اذهب إليها يا عبد الستار فى المستشفى كى

أنتهز فرصة الضعف التى تنتاب المرضى فى مثل هذه الظروف . . وأتقدم إليها طالبًا يدها . . » .

كانت الطبيبة تقف باسمة على مقربة منها . . وكانت الأم تجلس قرب رأسها وقد غطت وجهها بشال أسود ، ونزلت الدموع من عينى الأم ، وقالت الطبيبة :

- «أنا شخصيًا موافقة . . ما رأيك يا فاتن» .

أرخت فاتن أهدابها ، وتمتمت :

- «الأمر أمركم . . » .

واختطف عبد الستار يد فاتن وأخذ يقبلها فى انبهار وهو لا يكاد يصدق ، ثم هرول خارجًا ، وهو يقول :

- «سوف أزف البشرى لأمى على الفور . . » .

وخلعت الأم شالها الأسود عن وجهها ، ثم نظرت إلى الطبيبة فى امتنان ، وقالت :

- «ربنا يستر عرضك . . أنت ملاك طاهر . . » .

ومالت الطبيبة على فاتن ، وقبلت رأسها فى حنان ، وهى تقول :

- «إن الخطأ مهما كان جسيمًا لا يقفل باب الأمل والرحمة . . إن باب الله دائمًا مفتوح . . ولنحاول دائمًا أن نبدأ من جديد . . » .

طوقتها فاتن بذراعيها الواهنتين، وأغرقت وجهها بالدموع والقبلات . .

ثم تناولت الطبيبة أوراق المريضة، وسجلت عليها الكلمات التالية :

- «شفيت المريضة . . خروج من العيادة . . » .



ليلة غاب عنها القمر

منذ سنوات بعيدة كنت أعمل طبيبًا فى إحدى القرى النائية، والحياة فى القرى ليست حياة شاعرية هانئة دائمًا كما يصورها بعض الشعراء، صحيح أن الأشجار الخضراء، والحقول الجميلة، والسماء الزرقاء الصافية، والبساطة الواضحة والقناعة والصبر، والرضا بما قسم الله، كلها تشكل لونًا من الحياة بعيدًا عن التعقيد والضوضاء والصراع القاسى، وفى أحد الأيام تغير كل شىء، تحول الهدوء إلى عواصف ثائرة، وأصبحت جنة الأمن جحيمًا من الخوف والشك، وكاد دولاب العمل يتوقف. . .

لقد حدث خلاف فى «سوق القرية» بين أحد التجار من قريتنا وعميل له من قرية مجاورة وتبودلت الاتهامات ثم الشتائم، وتحول سوق القرية في دقائق إلى معركة دامية، سقط على أثرها قتيلان من القرية المجاورة. . بالإضافة إلى عدد آخر من الجرحى. . وكان هذا بداية صراع عنيف بين القريتين. . والغريب فى الأمر أن مصالح

القريتين متشابكة، وأواصر القربى والمصاهرة تربط بينهما، بل إن مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية التى تملكها قريتنا، تقع فى زمام القرية المجاورة. . وبات واضحًا أن تلك القرية تريد أن تثأر لقتيليها، والثأر هناك شرف وكرامة، ويا ويل من يفرط فى ثأره عندهم. . .

إنه لا يستحق الاحترام. . بل حرام عليه أن يعيش، ويلتقى مع الناس. . وقررت القرية المصابة أن تقتل أى وافد من القرية المعتدية مهما كانت مكانته. . لا بد أن يقتلوا اثنين. . أى اثنين. . وهكذا توتر الموقف، ولم يعد فى إمكان المزارعين الذهاب إلى حقولهم هناك، كما أصبح متعذرًا السفر إلى المدينة؛ لأن طريق المسافرين يمر بالقرية المنكوبة. . .

وكان ليل الصيف الهادئ تقطع سكونه طلقات الرصاص المنذرة المتوعدة، كما أن رسائل التهديد تتبادل بين الجانبين. .

كنت أجلس فى «الوحدة الصحية» التى أعمل بها أرقب الأحداث فى قلق، وأفكر فى طريقة لحسم هذا النزاع المخيف الذى ينذر بمزيد من الدماء والحرائق والدمار. . وكان قلقى يزداد كلما تذكرت أن «العيادة» تقع بين القريتين. . بين شقى الرحى. . وأنها فى العادة تستقبل المرضى من هنا وهناك. . إنه وضع شائك لا شك. .

وفى إحدى الأمسيات التى لا أنساها حدث أمر محير . . كانت ليلة من ليالى أواخر الشهر العربى . . ليلة بلا قمر . . وكنت جالسًا أمعن النظر فى النجوم، وأستمتع بالهدوء والهواء العليل . . أمام مسكنى داخل الوحدة الصحية . . وانشق الظلام فجأة عن أربعة من الرجال يحملون السلاح . .

نظرت إليهم، فلم أستطع النهوض من مقعدى . . ودق قلبى فى خوف . . وسال عرقى غزيرًا . . لم أكن أدرى ماذا أفعل . . إنهم من سكان القرية المصابة . . فكرت بسرعة . . لقد قدموا للأخذ بالثأر . . وأنا واحد من أهل القرية المعتدية . . وأسرتى منهم . . لقد فكروا فى صيد سهل ثمين فلم يجدوا أحدًا سواى . . أخذت أعض بنان الندم . . لكن ماذا يجدى الندم؟؟ كان يجب ألا أبقى هكذا وحيدًا فى هذا الوقت من الليل، وخاصة أن الوحدة الصحية تحيط بها أعواد الذرة العالية فتشكل ما يشبه الغابة القائمة الضخمة تحت ستار الليل المدلهم . . أأصرخ؟؟ أأستغيث بالحارس المسلح؟؟ هراء!! إن البنادق فى أيديهم . . وطلقة واحدة سوف تخرس صوتى إلى الأبد لكنى دون وعى منى هتفت بأعلى صوتى مناديًا الحارس!

- «عبد الواحد . . يا عبد الواحد . .».

لكن رجلاً منهم قدم نحوى فى هدوء وربت على كتفى فى

حنان وهو يقول فى نبرة صدق لا تخفى على من عاشر هؤلاء الناس :

- «لا تخف يا دكتور . . نحن لا نؤذى من يخفف عنا الآلام ، ويشفى الجراح . . أنت بالذات لا دخل لك فيما حدث . . أنت منا ونحن منك . . . » .

قلت وجسدى كله يرتجف :

- «ماذا تريدون إذن»؟

قال :

- «إن امرأة وضعت جنينها منذ أربعة أيام . . وهى فى حالة من السوء يرثى لها . . إذا لم تنجدها فستموت . . » .

نظرت إلى الرجال الأربعة وكانت البنادق معلقة فى أكتافهم واستطعت أن أميزهم بعد أن هدأ روعى قليلاً . . إننى أعرف أسماءهم ، وقد استقبلتهم فى العيادة كثيرًا . . وهنا قدم الحارس عبد الواحد مسرعًا . . كان هو الآخر ممسكًا ببندقيته ، وقد صوبها نحوهم . . لكنهم لم يبدوا حراكًا . .

قلت لعبد الواحد ، وأنا أتنفس الصعداء :

- «أنزل سلاحك . . » .

لكنه بقى على وضعه، وقال فى فظاظة :

- «ماذا تريدون؟» .

رد أحدهم :

- «كن عاقلاً يا عبد الواحد . .» .

- «الغدر فى دمكم . .» .

- «اعقل يا عبد الواحد . .» .

قمت من مكانى بعد أن استعدت رباطة جأشى ، ووضعت يدى على بندقية عبد الواحد، وأنا أقول :

- «نحّ هذه بعيدًا، واذهب واستدع الممرضة (صفاء)، ولتوقظها إن كانت نائمة . .» .

وصرخ عبد الواحد فى دهشة :

- «أتذهب معهم يا دكتور؟ . .» .

قلت فى حزم :

- «اذهب، ونفذ ما أمرتك به» .

ومضى عبد الواحد فى تثاقل، لم يكن الأمر بسيطًا بالطبع، كيف أذهب إلى القرية الجريحة، ودماء ضحاياها لم تجف؟؟ أليس هناك احتمال ولو واحد بالمائة أن يثأروا منى؟؟ كنت أعانى من

صراع داخلى عنيف لا يعلم إلا الله مداه، ومع ذلك فقد كنت أجد نفسى منساقًا إلى تلبية رجائهم، والذهاب إلى قريتهم تحت جنح الظلام، إن نداء فى داخلى يدعونى للذهاب . . وجاءنى صوت أحدهم والحيرة تمزقنى :

- «أرواحنا فداؤك يا دكتور . . ولن تعض قريتنا اليد التي تقدم لها الإحسان . . » .

قلت متلعثمًا :

- «أستغفر الله . . . أنا فى خدمتكم دائمًا . . » .

وفى وقت قصير تجمع كل العاملين بالوحدة الصحية، من فراشين وممرضين وممرضات، وحدث لغط شديد، وأجمعوا على ألا أذهب، ولتذهب المريضة إلى الجحيم . . لكننى قلت فى هدوء :

- «بل سأذهب ! ! من سيأتى معى ! ؟» .

قالت صفاء :

- «لن أتركك . . » .

وقال «فى المختبر» رضوان :

- «وأنا أيضًا . . » .

وصاح عبد الواحد الحارس :

- «رجلى على رجلك . . أنا هنا ممثل الحكومـــة . . ولن أفارقك . . » .

وخرج الموكب الصغير من الباب الخلفى للوحدة الصحية ، وشق طريقة الضيق فى الظلام الدامس ، وعن اليمين واليسار تمتد حقول الذرة القائمة كجبل أخضر ، ننطلق فى واديه الضيق . . وكان وقع أقدامنا يتردد صداه فى الصمت الرهيب . . وبعد ربع ساعة كنا ندلف إلى شوارع القرية وحاراتها الضيقة ، وأخذنا نخرج من زقاق لندخل فى زقاق آخر . . وفى المكان المقصود وجدنا عشرات من لمبات الكيروسين المشتعلة وقد حملتها النسوة المتشحات بالسواد على جانبى الطريق . . كنت أسمعهن وأنا أسير فى الطريق المترب الضيق وهن يرددن عبارات كثيرة تحمل معانى التقدير والعرفان بالجميل :

- ربنا يستر عرضك . .

- الله يحميك لشبابك . .

- أصيل وابن ناس . . وما إن دلفت إلى بيت المريضة وهو بيت صغير يشبه الكوخ ، حتى سمعتها تصيح وتستغيث ، وتهتف : «ارحمونى . . الرحمة يا رب» .

كانت ممددة فوق حصير مهترئ ، ورأسها يتحرك يمينًا ويسارًا ،

وهى تعانى من كرب شديد، وظلال الآلام المبرحة تنعكس على وجهها الشاحب المحيل، وطفلها الوليد ملقى إلى جوارها يصرخ . .

وبعد فحصها تبين أن ثديها قد أصيب بخراج كبير، وإن شدة الالتهاب والصديد المخزون بداخله، قد سببت لها الحمى والآلام المبرحة . . وكان لا بد من إجراء جراحة عاجلة، عبارة عن شق طولى لإفراغ الصديد، وإعطائها بعض المسكنات والمضادات الحيوية . . ولم نضيع وقتًا . . وكانت صفاء تتحرك إلى جوارى فى خفة . . وأمكننا أن نستعمل التخدير السطحى، وإذا لم نكن نملك غيره . .

كانت عناية الله ترعانا . . وما إن وضعت المبضع وشققت الثدى حتى تدفقت كمية كبيرة من مخلفات الالتهاب . . أثناء العمل نسيت كل شىء، لم أعد أشعر بشىء من الخوف أو التردد . . وأنهينا كل شىء على وجه السرعة . . وشعرت بسعادة لا مثيل لها وأنا أرى المريضة تتنهد فى ارتياح . . ثم تدخل تدريجيًا فى نوم هادئ، وقد انفرجت أسارير وجهها، وبدا عليها الاطمئنان والرضا . . إنها لحظات من أغنى وأروع وأمتع لحظات الحياة . . وانطلقت زعرودة تردد صداها فى أفق القرية الحزين . .

وفى طريق العودة قال عبد الجبار وهو أحد الرجال الأربعة :

- «لن ننسى لك هذا الفضل ما حيينا. . لو طلبت حياتى لقدمتها لك . . ».

قلت:

- «أنا لا طلب لى سوى شىء واحد يا عبد الجبار».

- «اطلبْ تجد. . عبد الجبار لن يخون العهد. . ».

- «أن يعود الصفاء والوئام. . ».

- «تقصد الصلح يا دكتور؟؟».

وصمت عبد الجبار لحظات، فأردفت قائلاً:

- «المسلمون إخوة. . ولنعقد مجلسًا للصلح. . وما يحكم به الرجال يكون واجب السداد. . بذلك نسد الثغرة التى ينفذ منها الشيطان. . ».

ثم أمسكت بكتفه وهززته فى ود:

- «مد يدك وعاهدنى يا عبد الجبار. . ».

وانطلق صوت المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر، ومد عبد الجبار يده قائلاً: «أعاهدك». .

عندما عدت إلى الوحدة الصحية، وجدت حشودًا كبيرة من أهل القرية. . كانوا يحملون السلاح ويهددون ويتوعدون. . كانوا

يتوقعون أن أعود إليهم جثة هامدة، ووجدت عمدة القرية يسدد إلىّ نظرات عاتبة، ويقول:

- «لقد كدت تقضى على مستقبلك من أجل مغامرة طائشة».

قلت فى هدوء:

- «عفواً يا حضرة العمدة.. إن ما فعلته كان من أجل الواجب.. من أجل الله.. فلنذهب لصلاة الفجر..».

وفى أيام قليلة عاد السلام ينشر أجنحته البيضاء على الربوع الخضراء فى القريتين الوادعتين.



القاتل

جلس «سالم» بين أفرع الشجرة الضخمة المورقة، وعيناه تتأرجحان فى سرعة، ولهما بريق غريب، وتحت الشجرة وقف خلق كثير، إنهم ينظرون فى إشفاق إلى حيث يجلس «سالم» وقد ترقرقت الدموع فى عيون البعض وخاصة النساء، وعلى الرغم من جو الحزن القاتم الذى يسود المكان إلا أن بعض الأطفال كانت تصدر عنهم ضحكات مكتومة، وهتف سالم بأعلى صوته :

- لن أنزل من فوق الشجرة حتى تعزل شجرة الدر عن السلطنة . .

وشقت الطريق امرأة ملفعة بالسواد، والدموع تغرق خديها ورفعت يديها ضارعة، وقالت بصوت مرتعش النبرات :

- «وحياتى عندك تنزل يا سالم . . » .

لوَّح بيده فى ثورة :

- «لا يصح أن تحكمنا امرأة» . .

- «لقد جئت لزيارتك يا ولدى من مكان بعيد. . ».

وشرد سالم، وبدأ الشحوب جليًا فى وجهه، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة، ويتطلع إلى مبانى «مستشفى الأمراض العقلية» وإلى الداخلين من كل صوب لزيارة أقاربهم، وأخذ يغنى بصوت أجش يبعث على الألم ويردد نصف بيت من الشعر:

ولزرت قـــبـــرك والحـــبـــيـــب يزار

ولزرت قـــبـــرك والحـــبـــيـــب يزار

ثم توقف عن الغناء فجأة، وصرخ:

- «استمعوا إلىَّ جيدًا. . اللعنة عليكم جميعًا إن لم تعزلوا شجرة الدر عن العرش».

وعادت أمه تشهق، وتقول:

- «حاضر يا ولدى. . سوف نعزلها. . انزل لأقبل وجنتيك. . أريد أن أضمك إلى صدرى».

كان سالم فى العشرين من عمره، لكنه أهمل شعر شاربه ورأسه ولحيته، وبرغم ذلك، فقد بدا وسيمًا متوترًا شاحبًا يلفت النظر من بين عَشرات المرضى، واضجع سالم على غصن خلف ظهره، ومدد ساقيه فى الهواء، حتى إن أمه صرخت من الذعر مخافة أن يسقط من فوق الشجرة لكنه لم يكترث لها، وقال فى شرود:

- «نعم. . أحببتها من كل قلبي. . كنت أنظر إليها في وله، لكنها كانت تدير وجهها عني، وتحملق بغرام في وجه صديقي «معروف». . يا إلهي. . إن معروف مشغول عنها. . لكنها تطارده. . وأنا أطاردها. . هي لا تشعر بوجودي. . مع أنها كل وجودي. . وكان صديقي معروف لا يتميز بشيء بل كان أقرب إلى الدمامة بليدًا في دراسته الجامعية. . متغطرسًا. . يدخن كثيرًا. . يستدين. . كانت أسنانه صفراء. . وأنا أكره الأسنان الصفراء. . كل شيء أصفر يبعث في نفسي الضيق. . كانت هي مُدرسة في إحدى مدارس الحي. . قلت لها:

- معروف أحمق وليس جديرًا بك. . قالت لي: وماذا أفعل في قلبي؟! قلت لها: هذا جنون. قالت السمراء: الحب جنون. . دار رأسي. . انتزعت مسدس المرحوم أبي من درج المكتب. . قلت لها: هيا بنا. . وذهبنا إلى معروف. . وأسكنت في صدره ثلاث رصاصات. . وجدتها ترتمي فوقه تنتحب بجنون. . امتزجت دموعها بدمائه. . أخذت تحضنه وتبكي. . كانت تقبل يديه ورجليه وشعره. . وأسنانه الصفراء. . كانت تهتف به أن يصحو. . أن يرد عليها. . أنا الآخر تأثرت. . بكيت. . القاتل يبكي. . والتفتت إليّ وصفعتني. . صفعتني هنا على خدي. . ماذا أقول لها!!. . سلطانة!!!. .

ثم صاح بأعلى صوته:

- «قلت لكم اعزلوها.. اعزلوا شجرة الدر.. الشجرة الملعونة»..

وبدأ التأثر على الحاضرين، وأم سالم واقفة كتمثال من الحزن، يوحى بالمرارة والأسى، وعاد سالم يقول:

- «قلت لهم احكموا علىّ بالإعدام.. فأنا لا أريد أن أعيش.. ولست راغبًا فى رؤية شجرة الدر.. أنا أكره الظلم والطغيان.. وشجرة الدر لا تعرف حق القلوب.. ولا تعرف حق الله..».

انطلق صوت لم يتوقعه أحد أسفل الشجرة الضخمة، وقال:

- «أنت تظلم شجرة الدر يا سالم.. لقد كانت ملكة عظيمة وهزمت الفرنجة.. وحررت الأوطان..».

أمسك سالم بغصن يعلوه، وتطوح فى الهواء كقرد، كان يتأرجح من جهة إلى أخرى، وكأنه لاعب جمباز، ثم سكن وجسده يرتجف، وأشار بسبابته اليمنى نحو المتحدث، وقال:

- «لا تصدقوه.. هل يعقل أن تنتصر امرأة فى معركة حربية؟ لو كان صادقًا فيما يزعم لما استطعت أنا.. أنا سالم ابن زكية أن أضرب شجرة الدر على رأسها بالقبقاب حتى تموت.. نعم.. لقد قتلتها هى الأخرى.. وطلبت منهم أن يحكموا علىّ بالإعدام

فرفضوا . . كنت أعترض على المحامى الذى يدافع عنى . . اسألوا أمى . .

ارتمت أمه على الأرض، وشهقت باكية، وتجمّع حولها عدد من الأقارب يهدئون من روعها، ويخففون من أحزانها، بينما أخذ سالم يصرخ فى صديقه المجنون الذى زعم أن شجرة الدر قد انتصرت . .

وعاد الصمت مرة أخرى، وعاد سالم يتفحص الحاضرين بحثًا عن والدته، ثم قال :

- «تفضلى هنا إلى جوارى يا أمى . . ».

- «انزل يا حبيبى . . ».

- «لن أنزل حتى تتطهر الأرض من شجرة الدر . . ».

- «أنت قتلتها . . ».

- «لكن التاريخ يكذب ويجعلها حية . . ».

- «انزل يا سالم . . ».

- «سأنزل عندما تصححون أخطاء التاريخ . . لا بد أن يأتى أبو طبق ويقول لى انزل يا باشا . . ».

وانقشع جو الكآبة رويدًا رويدًا، وأخذ الحاضرون- غالبيتهم- يبتسمون، ويمازحون سالم، بينما أخذ يقهقه، ويقول :

- «اشتريت لها ساعة ذهبية . . باعتها وأعطت ثمنها لمعروف . . أهديتها فستانًا ثمينًا ، ولما سألت صويحباتها عمن أهداها ذلك الفستان قالت معروف . .

هو دائمًا معروف . . وأنا مجهول . . لماذا ! ! لأن امرأة تافهة أرادت ذلك ، فقلبت الموازين ، وزيفت الحقائق ، وقتلت رجلين . . شجرة الدر قتلت كثيرين . . لكن أهم هؤلاء الضحايا رجلان . . أنا ومعروف . . ومعروف حبيبى . . لم أفكر فى قتله برغم نقائصه . . ولم يفكر فى قتلى . . كلانا قتل الآخر . . وكلانا محكوم عليه بالإعدام . . يا أبناء شعبى العظيم . . أنا لم أحزن لموتى . . إننى الآن أقوى مما كنت . . استطعت أن أحرق العبودية والألم وأن أكتشف الزيف . . وعرفت الحب . . اذهبوا فأنتم الطلقاء . . واحرقوا الأوراق القديمة . . احرقوا كل شىء أصفر . . وحطموا الأسنان الصفراء . . » .

قدم شيخ جليل على رأسه عمامة ضخمة ، ملتفعًا بعباءة صوفية زرقاء ، تتدلى من عنقه مسبحة طويلة ، ويتوكأ على عصا غليظة ، ونادى بصوت آمر :

- «انزل يا سالم ، هذه أمك . . والجنة تحت أقدام الأمهات . . » .

قال سالم فى هدوء : «هل قتلتم شجرة الدر؟؟» .

- «نعم قتلتها عشرين مرة. .».

- «والأوراق الصفراء يا مولاى؟».

- «أحرقناها. .».

- «ومعروف!!».

- «عاد حيًا يرزق. . وقد هداه الله. .».

ووثب سالم من فوق الشجرة حتى كادت رجله تنكسر، وهرول إلى أمه وعانقها فى حرارة، وقال:

- «اعذرينى يا أمى. . يجب أن أدبر أحوال الرعية. .».

والتفتت الأم إلى الرجل المعمم لتشكره، وكم كانت دهشتها عندما رأته قد خلع عمامته، ولف شالها حول وسطه وأخذ يرقص فى عنف، رقصات لا تتفق وكبر سنه، ثم ارتمى على جانب الطريق يلهث. .

وأخذت الأم تربت على رأس وحيدها، وتقبله فى حنان، وتقول:

- ما هذه الأفكار التى تسيطر على عقلك يا ولدى. . أنت طاهر نظيف. . إنسان. . لم تقتل أحدًا. . كنت تبكى إذا رأيت دجاجة تذبح. . انظر إلىّ جيدًا. . ماذا بك. .

نظر سالم إليها فى ذهول، وقال :

- «عندما عدت من الرحلة الشاقة عبر الصحراء المحرقة . . حيث الظمأ والذل والعذاب . . وحيث الناس يموتون كالفئران، وحيث لا قيمة للإنسان . . عندما عدت ودخلت بأقدامى المتورمة . . بدا لى أن كل مَنْ فى المدينة مجانين . . ووجدت لدىّ رغبة عارمة فى أن أنام . . » .

ثم ألقى سالم برأسه فى حجر أمه ونام . .

●●●

جنة الوهم

شعرت وداد بهم قاتل وحزن لا مثيل له عندما علمت أن زوجها الأستاذ سلامة سوف يتزوج من امرأة أخرى . . دار رأسها من بعيد من الأفكار والذكريات والتساؤلات، لماذا يحرمها الله من الإنجاب، لماذا لا تحمل وتلد كباقى النساء؟ إن شعورها بالظلم يحرقها، ويحيل حياتها إلى شقاء . . لقد تزوجت منذ خمس سنوات . . زارت أشهر الأطباء . . ذهبت إلى قراءة الكف والفنجان ومحضرى الأرواح والجن، لم تترك بابًا إلا وطرقته، ولا دربًا إلا وسلكته.

كان الأطباء يقولون لها : نحن لا نرى سببًا واضحًا لعقمك ويوصونها بالصبر، أما الأستاذ سلامة فقد ملّ الانتظار، إنه لا يستطيع أن يقبل الأمر الواقع، وخاصة أن الأطباء قد أكدوا لها سلامة وضعه، والاطمئنان التام لقدرته على الإنجاب.

وتزوج الأستاذ سلامة من زوجته الثانية هند . . كانت هند

تعرف المشكلة جيداً، وكان يضايقها بقاء الزوجة الأولى فى عصمة زوجها سلامة.. كانت تريد أن يطلقها، لكن سلامة رأى فى ذلك قسوة بالغة؛ لأن وداد لم تخطئ ولم تسئ إلى أحد.. لقد أراد الله لها أن تكون عقيماً..

وبعد شهر ونصف من الزواج شعرت الزوجة الجديدة هند بمشاعر لم تحدث من قبل ذلك.. إن شهيتها للطعام قد ضعفت بصورة لافتة للنظر.. وهى تشعر بالغيثان فى أغلب الأحيان.. بل إنها تتقيأ من آن لآخر.. مجرد رؤية الطعام يبعث فى نفسها التقزز والغيثان، وشعرت أن قواها تضعف.. وأن رأسها يدور وأن وزنها يقل.. وابتسمت نسوة البيت، وقلن:

- هذا هو الوحم.. ربنا يتمم لك بالخير والسلامة.. جاءت القابلة التى تقوم بتوليد النساء فى الأسرة عادة، وقالت فى سعادة بعد أن فحصت هند:

- سوف تكون مكافأتى عظيمة، ولن أرضى إلا بعقد من الذهب.. وخبرتى تؤكد أن مثل هذا النوع من الوحم يعنى أن الجنين سيكون ولداً.

وشعر الأستاذ سلامة هو الآخر بارتياح بالغ، لقد ذهب عنه الضيق، واختلجت عواطفه بالسعادة القصوى، أما المسكينة وداد فقد كانت تبكى وجسدها يرتجف.. لماذا تحرم هى من الإنجاب دون

سواها من نسوة البيت، هذا هو السؤال يطاردها صباح مساء، ويلح عليها دائمًا وشعرت بكراهية لكل ما حولها . . وتمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها، لكن ليس لها فى الأمر حيلة .

وذهبت إلى طبيب النساء ليكتب لها بعض العقاقير التى تخفف عنها آلام القىء والغيثان والغريب فى الأمر أن الطبيب بدا مترددًا بعض الشىء لكنه نظر فوجد علامات الوحم ثابتة مائة فى المائة، ووجد أن العادة الشهرية قد انقطعت، ووجد أيضًا أن البطن قد تضخم حجمه بما يقارب الحمل تقريبًا، لكن يده الخبيرة كانت مترددة . . وأراد أن يقطع الشك باليقين، فكتب لها تحليلاً مختبريًا خاصًا بالحمل كى يتأكد من وجود الجنين .

وذهبت هند ثم عادت للطبيب بعد أربعة أشهر أخرى كان بطنها قد تضخم أكثر، وكانت علامات الحمل واضحة من الظاهر تمام الوضوح . . لكن الطبيب فحصها . . وأطال الفحص . . وأخذ يعيد النظر . . إن البطن متضخم فعلاً . . والعادة الشهرية قد توقفت منذ أكثر من خمسة أشهر، لكنه لا يستطيع أن يحس رأس الجنين ولا أطرافه . . أى اليدين والرجلين وسماعة الطبيب هى الأخرى لم تسعفه، إنه لا يستطيع أن يسمع صوت قلب الجنين . . وسألها الطبيب لماذا لم تحضرى إلىّ نتيجة التحليل الخاص بمختبرات الحمل، فأجابت قائلة : إنه لا قيمة لذلك وأنها لم تجرِ هذا

التحليل؛ لأن الأمر واضح ولا يحتاج لشىء من ذلك. . لكن الطبيب طلب مرة أخرى إجراء التحليل، وقال: إنه يشك فى وجود حمل كاذب. .

وصرخت هند فى دهشة: حمل كاذب، ماذا تقصد؟

قال الطبيب وجبينه يتفصد عرقًا وحيرة:

- نعم إن البطن قد يتضخم أحيانًا، والعادة الشهرية قد تتوقف وقد يحدث أثناء ذلك نوع من الوحم. . وإذا بحث الطبيب لم يجد جنينًا. . هذه حقيقة. . وأنا لا أشك فى وجود الحمل. . أعتقد أنه حمل كاذب. . ولا بد من التأكد عن طريق المختبر.

ورفضت هند أن تنصاع لرأى الطبيب، وخرجت من عيادته يسبقها بطنها المتضخم. . وأخذت تربت على بطنها فى إصرار، تقول: سوف ألد طفلاً جميلاً. .

وقالت لها الداية (المولدة): أنا واثقة أنك سوف تلدين فى الموعد المحدد. . وسيأتى الولد على يدى لأنال مكافأتى الذهبية.

ومرت الشهور الباقية بطيئة الخطى، مفعمة بالترقب والانتظار والقلق، لقد ازداد تضخم بطن هند، كانت تبتسم فى ثقة، ورفضت أن تسمح للطبيب بإعادة الفحص، وشعر الطبيب بغير قليل من الحيرة، إن هند على وشك الوضع، فلو وضعت طفلاً

لكانت فضيحة الطبيب فى كل مكان . . وذات يرم شعرت الزوجة الأولى وداد بالفراغ ، لقد طلبت من إحدى شقيقاتها أن تعطيها طفلتها كى تربيها لها وتسليها فى وحدتها ، وحاولت أن تصرف عن نفسها الهموم والأحزان وأن ترضى بالواقع المرير ، كما أخذت ترقب الحمل الذى تحمله شريكتها فى زوجها بعين الغيرة . . والحسد ، إنها بشر .

وذات يوم شعرت هند بآلام المخاض ، لقد اقترب الوضع هرولت إلى عيادة الطبيب ، كانت تتألم وتتوجع ، إنها الولادة بالتأكيد . . لكن الطبيب بعد أن فحصها سدد نظراته صوب الأرض ، وقال :

- لا يوجد جنين . . حمل كاذب . .

صرخت هند قائلة :

- لا . . أحضروا الداية . . هى التى ستقوم بتوليدى .

وأحضروا الداية إلى عيادة الطبيب الذى انسحب إلى مكتبه يجفف عرقه ، وجاءت الداية إليها ، جلست إلى جوارها أكثر من ثلاث ساعات . . وأقبل الليل ، وانسحبت الداية ، وسمع الطبيب صراخًا ملتاعًا ينبعث من الداخل . . وذهب إليها . .

كانت هند تقول :

- لا يوجد جنين يا دكتور . . أنا لا أفهم معنى لكل ما جرى .

حتى الحمل الآخر يكذب . . الدنيا كلها ممتلئة بالأكاذيب . . سوف أعود إلى البيت بلا ولد . . كيف أواجه زوجى؟

وكيف أواجه الناس . . يا للعار .

قال الطبيب فى هدوء : هذا أمر الله ستحملين فى الوقت المناسب .

وخرجت هند من العيادة تجر حطامها جراً . . خرجت بلا ولد . .

إن السطر الأخير فى القصة لم ينته بعد . . لقد حملت وداد الزوجة الأولى بعد عام من الزواج الثانى لزوجها لكنه كان حملاً صادقًا . .



محاكمة العقل الباطن

الأستاذ «عبد الرحمن حجاج» شخصية تلفت النظر، إنه مثقف واسع الاطلاع، مرهف الحس جداً، يتأثر بأبسط الكلمات، وبالمشاهد العادية التى يراها، يرفض الإساءة مهما كانت تافهة، ويتعذب لأقل هفوة فى حقه، إنه يفكر كثيراً فيما يقوله الناس عنه، ويهتم بآرائهم أشد الاهتمام، ويأنف من أى نقد يوجه إليه، ويعتبر هذا النقد عدوانًا عليه، ونيلاً من هيبته وكرامته، وقد يعتبره صورة من صور الحقد عليه، أو الغيرة منه، البعض يقول إنه إنسان معقد برغم ثقافته وذكائه وتفوقه فى عمله، ويرون أنه لا بد وأن يعرض نفسه على طبيب نفسانى، وآخرون - من حسنى النية- يعزون ما يحدث منه من تصرفات، لكونه فنانًا مرهف المشاعر، أما زوجته السيدة «هناء» التى يغار عليها أشد الغيرة، فتعتقد أن زوجها رجل عبقرى، وأنه يتميز بعاطفة جياشة، وإخلاص جم، وتفانٍ فى العمل لا مثيل له.

وكانت سرعة الغضب التى عرف بها، تجعله يفقد الكثيرين من أصدقائه ومعارفه، كما تجعله على علاقة غير طيبة بكثير من زملائه إلا صديقه الأستاذ «مصطفى» الذى فهم عبد الرحمن فهمًا دقيقًا، وأدرك - بعد عشرة طويلة - ما يسره أو يحزنه، وهكذا رضى به وأحبه على علاّته، وأصبح يتقبل حماقاته وانفعالاته، بغير قليل من الهدوء والتسامح، ولهذا أحبه مصطفى أشد الحب وأعمقه وأنزله فى قلبه منزلة عالية، فكان يرتاح إليه وإلى أحاديثه، ويبثه عبد الرحمن الكثير من همومه وأشجانه، بل ويقرأ عليه أشعاره الحديثة المغرقة فى التشاؤم والغموض، والتى تتحدث كثيراً عن الليل.. والأشباح.. والموت.. والغابات المظلمة المجهولة.. والأرض الخراب.. وعلى الرغم من أن مصطفى لم يكن يحب الشعر الحديث أو يطرب له، إلا أنه كان يبدى إعجابه وتحمسه له من باب المجاملة والتشجيع لا أكثر..

وذات مساء أصيبت «هناء» بنزيف رحمى حاد؛ كانت حاملاً فى شهرها الثالث، وعندما أتت إلىّ يصحبها زوجها الأستاذ عبد الرحمن وصديقهما الأستاذ مصطفى، وشكت لى الآلام التى تعانى منها أسفل ظهرها، والانقباضات الشديدة فى بطنها، والنزيف الذى لا يكف عن التدفق، أدركت بالطبع أننى أمام حالة إجهاض.. وبعد إجراء الفحص الدقيق تأكد لى أنه «إجهاض

محتم»، ومعنى ذلك أنه لا بد من إخراج الجنين عن طريق عملية يطلق عليها الأطباء عملية «كحت وتفريغ» وهذه الحالة تختلف عن الإجهاض «المنذر» الذى قد يمكن تداركه ومن ثم يحافظ على الجنين، ويستمر الحمل . .

شرحت الأمر للزوج . . كان حزينًا غاية الحزن . . وكان سبب حزنه ذلك الحب العارم الذى يكنه لزوجه الجميلة المهذبة التى تؤمن به، وتحترم شعوره دائمًا، وتغمره بعطفها وحنانها، وتتقبل تصرفاته وآراءه ثم هناك سبب آخر لحزنه لعله أهم من السبب الأول، ألا وهو رغبته العارمة فى أن يكون أبًا بأقصى سرعة ممكنة . . كيف يصبر مرة أخرى حتى تحمل وتلد، إنه متعجل دائمًا، ويشعر أنه فى سباق عنيف مرير مع الزمن، هكذا دأبه دائمًا . . يريد أن يحقق كل آماله بسرعة . . اليوم قبل الغد . . يكره الصبر أشد الكراهية . . لذا فهو حزين . . متوتر . . ساخط على الأوضاع . . يريد أن يغير الحياة ويقيم دعائمها على الصورة التى يحلم بها . .

ولهذا دس يده فى جيبه، وأخرج بعض الأقراص المهدئة للأعصاب، وابتلعها دون ماء حتى يمكنه أن يصمد للموقف، وتمر الأزمة بسلام، بعد أن تجرى الجراحة العاجلة لزوجته . .

كان عبد الرحمن يبدو فى حالة سيئة هستيرية، يروح ويجىء، ولا يجلس على المقعد إلا لينهض ثانية، يتكلم ولا يكمل حديثه، ثم

ينتقل إلى موضوع آخر، قلبه يدق فى عنف، إنه شديد الخوف على زوجته برغم تأكيد الطبيب أن العملية بسيطة، ولا تحتاج إلا لوقت قصير.. إنه يتخيل الأشياء السيئة دائمًا، ولا يفكر إلا فى أبشع الاحتمالات.. ولذا فهو يميل على أذن صديقه مصطفى، ويقول:

- «أخاف أن تموت هناء.. لقد رأيت أحلامًا مزعجة ليلة أمس.. أكاد لا أصدق أنها ستخرج سليمة من غرفة العمليات.. ألم يكن فى الإمكان تجنب هذه العملية؟؟».

كان مصطفى يبدو هادئًا رزينًا برغم اهتمامه الزائد بما يجرى حوله، ونظر إلى صديقه قائلاً:

- «لماذا هذا الانزعاج يا عبد الرحمن؟؟ إنك تجعل من الحبة قبة، إن عالمك الشعرى شىء، والحياة شىء آخر.. هذه العملية تعمل للنساء فى الصباح ويعدن إلى بيوتهن فى المساء.. إنها أبسط مما تتصور.. فلتبعد عن رأسك هذه الأفكار السوداء.. ولترضَ بقضاء الله..».

أما هناء فقد نظرت إلى زوجها فى امتنان وحب، ثم أمسكت بيده المرتجفة فى حنان، وقالت والابتسامة تشرق على وجهها الشاحب:

- «لا تخف يا حبيبى.. لقد أجريت هذه العملية لأمى خمس مرات.. وسوف يعوضنا الله خيراً..».

ومرت العملية بسلام، وخرجت هناء على العربة التى يدفعها المضمد أمامه خارج غرفة العمليات، وهى نائمة من أثر التخدير الكلي، وعندما رأى عبد الرحمن أنفاسها تنبعث هادئة رتيبة، انكب عليها وأخذ يحتضنها ويقبلها فى شغف، ويحمد الله على نجاتها، وهى بالطبع لا تشعر به، ومصطفى الصديق الحميم يرقب ذلك المشهد فى رضى وسعادة. . إنه يحب صديقه من كل قلبه، ويتمنى له دائمًا راحة البال، والهناء الدائم فى حياته.

ونقلت المريضة إلى سريرها في غرفة خاصة ووقف عبد الرحمن ومصطفى إلى جوارها.

وبعد دقائق أخذت هناء تتقلب دون وعى منها، وتهذى ببضع كلمات من هنا وهناك. .

قالت الممرضة الواقفة دون قصد:

- «الآن سوف تذيع السيدة هناء بعض أسرارها. . إن مراحل الإفاقة من التخدير فيها مرحلة معينة، يتحدث فيها المريض عن بعض الأشياء المكبوتة فى عقله الباطن. . ويفشى بعض أسراره. . هل تريدان سماع أسرار السيدة أم تنصرفان؟».

نظر عبد الرحمن إلى الممرضة فى اهتمام، إنه لأمر جد خطير. . ومصطفى هو الآخر شدت انتباهه هذه الكلمات، لكنه قال على الفور:

- «من الأفضل يا عبد الرحمن أن ننصرف، فلندعها حتى تفيق من التخدير، ولنترك الممرضة تمارس عملها».

قال عبد الرحمن فى إصرار:

- «أما أنا فسأبقى.. إنها زوجتى.. ولا يمكننى فراقها قبل أن تفيق وأطمئن عليها».

وأدرك مصطفى على التوّ ما يرمى إليه صديقه، فآثر الخروج، واستأذن صديقه، متمنيًا لزوجه الشفاء العاجل، وانصرف دون إبطاء..

وخرجت الممرضة أيضًا، وبقى عبد الرحمن وحده إلى جوار هناء.. وفتح أذنيه جيدًا.. إنها تجربة مثيرة مخيفة، كان يقرأ عنها فى القصص والروايات..

ومر يومان لم يرَ أحد فيهما عبد الرحمن..

وعندما أفاقت زوجه من التخدير لم تجده إلى جوارها.. كانت فى أشد الشوق لرؤياه.. وعجبت هناء لذلك أشد العجب.. وأخذت ترسل إليه.. وتدق التليفون.. وبعثت بمصطفى للبحث عنه.. لكن أحدًا لم يستطع الاهتداء إليه..

وكان لا بد أن تخرج من المستشفى، وهى فى حالة من القلق

والضيق يرثى لها . . وجاءت أمها لأخذها من المستشفى . . وأخذتهما سيارة الأجرة إلى طريق غير طريق بيت الزوجية .

- «إلى أين يا أمى؟» .

- «عبد الرحمن يا ابنتى سافر فى مهمة عاجلة إلى مدينة بعيدة . . ومن الطبيعى أن تعودى إلى بيت أبيك إلى أن يرجع زوجك . . » .

ولم تقضِ فى بيت أبيها سوى ثلاثة أيام . . وكان أمرًا مفاجئًا مفجعًا أن يأتىَ من يسلمها ورقة «الطلاق» .

وبدا الأمر غريبًا غاية الغرابة ولم يستطع مصطفى أن يصدق ما يسمعه ، إن تصرفات عبد الرحمن الشاذة لا يمكن أن تصل لهذه الدرجة من الحماقة والسفه ، أهناك احتمال بأن يكون عبد الرحمن قد أصيب فعلاً بالجنون؟؟

وجرى مصطفى فى كل مكان يبحث عن عبد الرحمن حتى وجده بعد جهد جهيد ، وعندما رآه قال :

- «ما هذا الذى فعلت يا عبد الرحمن؟؟» .

سدد إليه عبد الرحمن نظرات تشتعل حقداً وكراهية ، ثم انقض عليه فجأة ، وأمسك بتلابيبه وصاح فى جنون :

- «اخرج من هنا أيها الخائن . . » .

- «هل جننت؟؟؟» .

- «بل عـاد عـقلى إلى رأسي . . كـان لا بد أن أضع الأمـور فى وضعها الصحيح . . » .

- «كيف أصدق؟؟ إنك تهذى . . » .

قال عبد الرحمن بصوت كالفحيح وهو يهزه فى عنف :

- «إنها هى التى كانت تهذى . . وتهتف باسمك اسمك أنت يا مصطفى . . يا أعز صديق . . وهى تحت تأثير المخدر . . وكانت تخاطبك بأحلى الكلمات . . أحبك يا مصطفى . . أنت رجل طيب مخلص يا مصطفى . . اقترب منى يا مصطفى . . اعمل له قهوة يا عبد الرحمن . . هكذا كانت تقول وهى مخدرة أيها الوغد اللئيم . . أتعتقد أن هذه الكلمات الحلوة الرقيقة لك كانت تتدفق من فراغ؟؟ اخرج أيها الخائن . . ولا تجعلنى أرى وجهك مرة ثانية . . وإن حدثنى يومًا أحد عن الصداقة والأصدقاء فلسوف أبصق فى وجهه . . » .

●●●

لم تفلح دموع هناء أو توسلاتها ، ولم تجد الأيمان المغلظة ، وكذلك لم يكن افتقاد الدليل الواقعى ، بشفيع لدى عبد الرحمن . . قالوا له : إن هذه الكلمات التى تفوهت بها زوجته وهى تفيق من

التخدير ليست سوى عواطف إنسانية من صديق لصديق، ولا يمكن أن تحمل معنى الغدر والخيانة، وأن النائم تحت التخدير قد تختلط عليه الأسماء والأحداث والذكريات.. وحاول الطبيب أن يقنعه.. لكن عبد الرحمن أغلق أذنيه وقلبه وعقله..

وهكذا انهارت الأسرة..

وانهارت معها أمنيات الصداقة والسلام والحب.

●●●

الضحيـــة

كان قلبى يجتاحه لون من ألوان الخوف الغامض الذى لا أعرف له مصدراً ، إذا تصورنا أن لكل إنسان جهاز استقبال ، فإنى أعتقد أن إشارات تأتى من بعيد يستقبلها هذا الجهاز . . إشارت واضحة المعالم . . لكنها تنبئ عن خوف ، ولم يطل انتظارى ، فقد سمعت دقات عنيفة على باب منزلى فى تلك القرية النائية من صعيد مصر ، هرولت لأفتح الباب دون أن تخفى ملامح الاضطراب على وجهى وتصرفاتى ، وعندما فتحت وجدت شرطياً منتصبًا أمامى وبيده ورقة ، وإلى جواره يقف ثلاثة من الرجال الأشداء ، قد لوّحت الشمس وجوههم ، يلفون العمائم التقليدية على رءوسهم ، وعيونهم فوق شواربهم الكثة تنظر إلىّ فى تحدٍّ وترقب . .

قلت فى إشفاق :

- «خيراً . . » .

قال الشرطى دون أدنى انفعال :

- «هناك على شاطئ النيل جثة امرأة غريقة، والإدارة تطلب منك فحص الجثة، وكتابة تقرير وافٍ عن سبب الوفاة..».

وأردف واحد من الرجال الثلاثة قائلاً:

- «الوفاة طبيعية يا دكتور.. أقصد أنها ذهبت لتملأ الجرة فجرفها التيار.. وغرقت، ولا شيء غير ذلك.. الأعمار بيد الله يا دكتور.. كلنا سنموت..».

وصمت برهة ثم استطرد:

- «أنا أبوها..».

ثم استدار صوب الرجلين الآخرين، وقال:

- «وهذا عمها، وذاك أخوها الأكبر..».

قلت:

- «حسنًا.. فلنذهب لمعاينة الجثة..».

قال أبوها:

- «سبحان الله.. ولماذا تتعب نفسك؟! ألا تثق فى كلامنا؟! ثم إن تشريح جثة ابنتنا أمر لا يليق..».

قلت:

- «هذه إجراءات لا بد منها.. ومخالفتها يعرضنى لكثير من المشاكل.. وأنتم تعرفون القانون.. إنه لا يرحم أحدًا..».

- «أى قانون؟! إن لنا قانوننا . . قانون الحكومة للحكومة . . » .

- «وأنا موظف فى هذه الحكومة يا حاج . . اعذرنى» .

قال الأب فى ضيق وغضب مكتوم :

- «هيا . . وخلصنا» .

وذهبنا إلى الشاطئ . . كانت الساعة حوالى الثامنة صباحًا ، وبيت الفتاة الغريقة قريب من الشاطئ، ووجدتهم -دون إذن مسبق- قد نقلوا الفتاة إلى المنزل بحجة سترها وحمايتها من أعين الفضوليين ، وطوال الطريق كان الرجال الثلاثة يؤكدون لى أن الوفاة طبيعية ، وأنهم لا يعادون أحدًا ، وسوف يثبت لى صحة ما يقولون . . لكن كلماتهم كانت تتساقط دبر أذنى . . إن علمنا قائم على المشاهدة والوقائع ، لا نستطيع أن نتقبل أمرًا من الأمور دون تحرٍ وتمحيص ، وخاصة إذا كان هذا الأمر يتعلق بحياة إنسان . . وأخذت أشرح لهم فلسفتنا فى العمل بالنسبة للطب الشرعى ، فنحن نأخذ الأمور فى البداية بالشك . . فإذا استطعنا أن نجد الدليل الأكيد على بطلان الشك ، سلمنا بالحقيقة . . نعم . . لأن الحقيقة تحتاج فى العثور عليها إلى الصبر والمعاناة والتضحية بالنفس أحيانًا .

ودخلت المنزل . . كان موحشًا كالقبر ، لم أسمع صراخًا أو بكاء ، حتى الجيران لم يهرولوا إلينا كعادة أهل الريف فى التجمع

عند الأحداث، لكأن الأمر لا يعنيهم.. ما زال الخوف مسيطراً على نفسى.

وأخيراً رأيت الجثة ملقاة فى غرفة مغلقة النوافذ، شحيحة الضوء، قلت لهم فى رقة:

- «افتحوا النوافذ حتى أرى».

قال أبوها وشاربه يرتجف وعيناه تتقدان غيظًا:

- «لماذا تزيد من آلامنا؟؟ ألم أقل لك إن الوفاة طبيعية؟؟ ألا يكفى أن نسمح لك -وأنت رجل- أن ترى حريمنا وهن فى حرمة الموت؟؟».

وطلبت خروج الجميع إلا الممرض الذى يرافقنى، ووجدت صعوبة بالغة فى إقناعهم بتنفيذ الأمر، غير أن أخاها قال فى سخرية:

- «افعل ما شئت يا دكتور.. فالنتيجة معروفة سلفًا.. ونحن أهل الصعيد لا ننسى الإساءة..».

وقمت بفحص الجثة جيداً، وخفق قلبى خوفًا عندما اكتشفت أنها حامل فى الشهر الخامس تقريبًا، وليست عذراء كما زعموا، كما وجدت سحجات وخدوشًا فى العنق، بالإضافة إلى كسر فى عظمة الزور الأمامية التى تشكل ما تسميه «بتفاحة آدم»، ومن ثم

استطعت على الفور أن أكوّن فكرة مبدئية عن المأساة . . فالسحجات والخدوش والكسر تعنى جريمة خنق وصراع شديد بين الضحية والآخرين . . ثم أخذت ووضع رأسها فى النيل . . فماتت مخنوقة غريقة .

وبعد أن انتهيت من الفحص ، ونظفت يدى ، استخرجت أوراقى من الحقيبة كى أكتب . . وقبل أن أسجل حرفًا واحدًا نظرت . . لقد تجمع حولى عدد من الرجال وعيونهم كأنها تقذف بالحمم . . وقرأت فى عيونهم كل شىء . . إنهم لو وجدوا أن تقريرى يخالف رغبتهم فسوف يقتلوننى على الفور . . والشرطى الواقف هو الآخر مثلى . . رجل ضعيف لا يمكنه أن يتصدى لتيار التقاليد الجارف . . والممرض هو الآخر واحد منهم . . شعرت أننى وحيد . . وأننى وقعت على أرض غريبة . . الناس فيها غرباء عنى تمامًا . . أو ربما جاءوا من كوكب آخر غير هذه الأرض . . إما أن أضحى بنفسى على مذبح الحق والعدالة ، أو أنصاع لرغبتهم ، وأقرر أن الوفاة ليست جنائية . . أصبحت بين خيارين كلاهما مر . .

قال أبوها وقد شحب وجهه ، ولهثت أنفاسه ، وتفصد جبينه عرقًا :

- «قلت لك اكتب . . الوفاة طبيعية . . وأعطنا التصريح

بالدفن . . كل شيء جاهز . . ونحن خير من يعرف الواجب نحو من يسدون إلينا المعروف . . ».

وفى صوت واحد قال الرجال المحتشدون وعلى وجوههم الإصرار العنيد :

- «اكتب . . » .

حتى مرافقى المرض هو الآخر قال فى اضطراب :

- «اكتب يا دكتور . . إن التقرير الذى تكتبه لن يرد للغريقة حياتها ، ولن يغير من الواقع شيئًا . . لقد ماتت وانتهى الأمر . . » .

وكم كانت دهشتى عندما جاءنى صوت الشرطى هو الآخر :

- ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] .

يا إلهى ! ! عالم من ضياع وقيود وقسوة ، أية حياة تلك ! ! وأخذت أتلفت حولى ، بحثًا عن مخرج ، إن من حقى أن أعيش ، وأن أسعد بحياتى ، أحب العدالة كحبى للحياة ، لكننى فى هذه اللحظات أيقنت أن حياتى أغلى من أى شيء ، أهى الأنانية أم الجبن أم اليأس من إصلاح هذا الفساد الذى يمتد لأميال عديدة عبر الشطآن والسهول والصحراء العريضة . . قد أتيت إلى هنا بنور العلم والمعرفة ، لكنى غرقت فى محيط شاسع من الجهالة والتقاليد

العمياء، وهيهات لذراعىّ الضعيفتين أن تقاوما هذه الأمواج الهادرة من الحماقة والجهل والتخلف . . إن هناك اختلالاً أو عدم توازن فيما يقدم لهؤلاء الناس من خدمات .

تناولت القلم وسجلت :

- «الوفاة طبيعية . . يصرح بالدفن» .

وتنهد الرجال فى ارتياح، وجرنى الأب إلى ركن منعزل داخل البيت، ثم دس فى يدى رزمة من الأوراق المالية، وهو يقول :

- «لا بد أن نكرم من يكرمنا» .

قلت فى ضراعة :

- «يا حاج . . إنها خدمة لوجه الله . . » .

ووجدت صعوبة بالغة فى إقناعه بأخذ المال، ولم يستجب لرغبتى إلا بعد أن أكدت له أننى سوف آخذ مكافأة عينية من الخراف والسمن ومحاصيل الأرض الطيبة، بعد أيام قليلة .

وخرجت من منزلهم وكأنى ولدت من جديد . . كنت أمضى فى طريقى متعثراً لا أكاد أميز شيئًا . . اختلطت المرئيات أمام عينى . . الوجه الأزرق الأسمر . . وجه الغريقة . . وعيناها الجاحظتان . . وشعرها الفاحم المنسدل . . كل تفاصيل هيئتها تطاردنى . . وأنا أكاد أختنق . . قال لى أبوها عند الرحيل : «السر

فى بير يا دكتور . . ومن يفضح سرنا لا يستحق الحياة وأنت رجل متعلم تعرف الأصول» . . . قلت له : «عيب يا حاج . . لا تشك فىّ . . نحن رجال مثلكم تمامًا . . ونعرف قدر الرجال . . ولا نقصر فى أداء الواجب . . » .

عندما وصلت إلى مسكنى وأغلقت بابه، هدأت قليلاً، ثم قمت على الفور، والتقطت الأشياء المهمة، ودسستها فى حقيبة واحدة، تاركًا ما تبقى من أشياء، ثم تسللت تحت جنح الليل إلى المدينة . . وهناك ذهبت إلى مأمور المركز . . وإلى وكيل النيابة، وقلت :

- «هذه القرية لن أعود إليها مرة ثانية . . استمعوا إلىّ جيدًا . . إن الوفاة جنائية . . والفتاة الغريقة حامل فى شهرها الخامس . . لقد قتلت عن عمد . . وإليكم التقرير الحقيقى . . إن التقرير الأول كتبته تحت الضغط والتهديد والإكراه . . لكن دينى . . وشرف مهنتى يلزماننى بأن أقرر الحقيقة قبل أن أغادر هذه الديار إلى الأبد . . » .

- «والله أنت شهم . . لكنهم سوف يطاردونك إلى آخر الدنيا . . » .

- «وليكن . . » .

وأخذ المأمور يقهقه، بينما قال وكيل النيابة :

- «لا بد من إرسال فرقة من الشرطة للقبض على أهلها، وحراسة القبر.. حتى يأتى الطبيب الشرعى من المديرية..».

شعرت بارتياح كبير بعد أن سلمتهم التقرير الحقيقى، لقد أديت واجبى بشىء من الدهاء، وكم كانت دهشتى عندما وردت إشارة تلفيونية تقول بأن أحد المزارعين قد أخطر باختفاء زوجته الحامل التى ذهبت لزيارة أهلها فى قرية قريبة ولم تعد.. وأنه يخاف على حياة زوجته لأسباب خاصة.

وتبين من التحقيق فيما بعد، أن الفتاة الغريقة كانت قد هربت من بيت أهلها منذ ستة شهور، لتتزوج من الرجل الذى اختاره قلبها، وبعد أن رفض أهلها، وظنت المسكينة أن هذه الشهور كفيلة بإعادة الوئام والصفاء.. وخاصة أنها لم ترتكب إثمًا، أو تخرج عن شرع الله، وشعرت برغبة جارفة فى زيارة أمها وأبيها وأهل بيتها.. إنه الحنين إلى الموطن.. وسوف تحاول أن تسترضيهم، لكنهم بعد أن أتت بنفسها وجدتهم يقولون لها فى شراسة:

- «إنه العار.. والعار لا يمحوه إلا الدم..».

كنت أعجب من أمر الإنسان، لماذا هذا العناء كله؟! لماذا هذه القيود والأسوار والشكوك؟! القيود تصنع الخوف والانحراف، وتقلب الحقائق، وتبدل النظر للأشياء، قد تجعل الحق باطلاً، والباطل حقًا.

وذهبت لأداء الشهادة بعد نقلى إلى إحدى محافظات الشمال بعد شهور.

كان الأب والعم والأخ فى قفص الاتهام . .

رمانى الأب بنظرة حاقدة حانقة، وهدر :

- «المدارس عمرها ما تخرّج راجل . . أنا وراك والزمان طويل . .».

وأدليت بشهادتى وانصرفت . . لم أنتظر حتى أسمع القاضى وهو يصدر حكمه عليهم بالسجن.

كان وجهها الشاحب الأزرق الحزين . . وخصلات شعرها الفاحم المنسدل على الجبين . . والعيون الجاحظة . . وبطنها المتكور . . الصورة التعسة بدقائقها كلها ما زالت تعشش فى رأسى المتعب المكدود.



القلبُ الجريح

كان «عبد الجواد» سجينًا من نوع غريب حقًا، في أوقات نراه وهو يضحك ووجهه يفيض بالفرحة الغامرة، والسعادة الطاغية، وأحيانًا أخرى نراه يجلس صامتًا حزيًا، وكأن هموم الدنيا كلها قد تكالبت عليه، وأغرقت قلبه ومشاعره في طوفان هائل من التعاسة والشقاء، إنه دائمًا لا يستقر على حال، كثير التنقل من مكان إلى مكان، لا تكاد تمر بضعة أيام حتى نراه وقد وقع في شجار صاخب مع زملائه في الزنزانة، وهو إذا غضب أو تشاجر تدفقت كلمات السخط والاحتجاج الصارخة كبر كان ثائر، وينتهي الأمر بأن يحمل متاعه البسيط -البرش المصنوع من سعف النخيل والبطانية اليتيمة التي يستدفئ بها في الليل- ثم ينضم إلى مجموعة أخرى من السجناء في زنزانة جديدة، وهكذا.. حتى أصبح أمر انتقاله من غرفة إلى غرفة أمرًا مألوفًا، لكنه بعد عام ونصف تقريبًا استقر نهائيًا في زنزانة رقم ١٢، لقد اجتمع السجناء من أهل الحي الذي ينتمي

إليـه «عبـد الجـواد»، وقـرروا بعـد دراسـة الوضع الخـاص به، أن يتحملوه مهما كان الأمور، وأن يسهروا على راحته وخدمته، ولا ينفـعلون بالغـضب إذا ثار أو سب، ويحـاولون فى كل مـرة أن يصالحوه ويعتذروا له، حتى ولو كان هو المخطئ. . إنهم جميعًا أصحاب قضية رأى سجنوا بسببها، وتربطهم قيم دينية وأخلاقية أصيلة، وفى إطار ذلك المفهوم اتخذوا قرارهم السابق، لكن الشىء الغـريب أننى كنت أسـمع همسًا يدور حول عبـد الجـواد، يتـعلق بنومه. . ترى ماذا يجرى، وكانوا فى الزنزانة إذا سئلوا، ينظرون إلى بعـضهم البـعض ويضحكون ثـم لا يفصحـون عن شىء. . إن حب الاستطلاع طبع فينا نحن البشر. . ربما أدرك رفاق عبد الجواد رغبتى العارمة فى معرفة السر. . وذات يوم جاءنى أحدهم قائلاً:

– «نحن ندعـوك لقـضاء الليلة معنا فى زنزانة ١٢ . . . وسنعد لك وجبة دسمة».

الحقيقة أننى سعدت بهذه الفكرة، وقال الصديق:

– «أنت طبيب، وقد تجد حلاً لمشكلتنا. .».

قلت فى لهفة:

– «أية مشكلة؟!».

قال وهو يبتسم:

- «لا تتعجل الأمر يا أخى.. سوف ترى بنفسك..» وكان لا بد أن نستأذن السجان المسئول عن «العنبر» وندفع قدراً من «السجائر»؛ لأنها العملة المتداولة حيث لا يسمح باقتناء المال داخل السجن.

و قضينا تلك الليلة سهرة ممتعة تحت الظلام الدامس إذ لم يكن يسمح بإضاءة الزنازين فى تلك الأيام، كان كل واحد يروى الطرائف والذكريات القديمة، وهى زاد المحرومين والغرباء الذين رمت بهم الأقدار فى تلك الزنازين المعزولة تمامًا عن حياة الناس، وكان عبد الجواد رأس الجلسة دون منازع، إنه برغم كل عيوبه محدث لبق جذاب، حلو الطرائف، يضحك من قلبه، أمره غريب هذا الرجل.. وعند منتصف الليل رأيته يضع يديه فى حجره، ثم يتدلى رأسه، وتغمض عيناه، ويغط فى نوم عميق وهو جالس.. حسبته فى بداية الأمر يظهر نوعًا جديداً من المزاح، لكن الإخوة قاموا على الفور، وأعدوا له فراشه البسيط، ثم حركوه برفق وأناموه كطفل وديع.. وبعد فترة من الزمن قصيرة راح فى سبات عميق.. الواقع أننى أكبرت فعلهم.. إنهم رجال أوفياء بمعنى الكلمة.. ثم قلت:

- «آن أن ننام حتى يمكننا النهوض لصلاة الفجر..».

رد أحدهم قائلاً:

- «أعتقد أننا لن ننام إلا بعد الفجر . .» .

قلت في دهشة :

- «لماذا؟!» .

قال : «أنت هنا في مهمة رسمية الليلة . . أيها الأخ الطبيب السجين نريد رأيك في تلك الحالة المرضية . .» .

ومرت فترة قصيرة بعد أن ساد الصمت ، فجأة سمعت عبد الجواد يقهقه مرات متتالية ، قلت :

- «ها هو قد استيقظ . . إنه يمثل مشهدًا مسرحيًا . .» .

ولكني لم أتلقَ ردًا من أحد ، وعدت أستمع إلى عبد الجواد إنه نائم تمامًا ، لكنه يتكلم وكأنه يقظ . . كان يجادل أشخاصًا مجهولين ، ويحاورهم ، لكننا نسمع الحوار من طرف واحد ، منه هو . . أما الذي يقوله الآخرون فلا نعرف عنه شيئًا . . وكان يذكر بعض أسماء إخوانه في السجن وهو يتكلم . . وكانت الكلمة التي يرددها كثيرًا لمعظم الناس «أنت حملة» . . وهي تعني أنك ثقيل الظل . . لا يمكن التخلص منك . . كان يقولها دائمًا في صحوه . . وها هو يكررها مرارًا في منامه . . وأحيانًا كنا نضحك لبعض القفشات والنكات التي يقولها وهو نائم . . ولاحظت أنه يعيد كل ما جرى له أثناء الليل في حديثه غير الواعي . . يرويه في إيجاز ،

وكأنه يسجل فى دفتر مذكرات أهم أحداث اليوم . . وفجأة سمعته يشهق باكيًا وهو نائم، ويقول :

- «تعالى يا حبيبتى . . سلوى . . أنت روحى وحياتى . . والله العظيم أنا أحبك أكثر من أى مخلوق فى هذه الدنيا . . دنيا فانية يا سلوى . . قطعت اليد التى سددت إلى قلبك الخنجر الغادر . . أنا لم أقتلك يا سلوى . . الشيطان هو الذى قتلك . . تعالى يا أختى الحبيبة . . . تعالى كى أقبل وجنتيك وعينيك ورأسك . . تعالى كى أضمك إلى صدرى . . من أجل خاطرى تعالى . . حياتى كلها صحراء عريضة من الحرمان . . أنا جائع . . ظامئ . . أما زلت غاضبة علىّ؟! أنت روحى وأملى يا حبيبتى . . سلوى . . سلوى . . ردى على . . تكلمى أين أنت؟! لماذا تهربين منى؟! أنا مجرم . . مجرم . . مجرم . . وأستحق نار جهنم . . سلوى . . » .

وارتفع صوته عاليًا وهو يصرخ سلوى . . سلوى . . كان صوته يتردد صداه فى أروقة السجن جريحًا حزينًا موشحًا بالندم والحسرة الأبدية . . وكأنه يمثل مأساة إغريقية دامية . . وسرعان ما امتدت إليه يد أحد الأصدقاء، وهزه برفق . . استيقظ عبد الجواد . . كانت الدموع فى عينيه وعلى خده . . وتلفت حوله . . ثم استغفر الله . . واستعاذ من الشيطان الرجيم وردد الدعاء المأثور، وهو يتقلب، ثم ينام على جنبه الأيمن ويغمغم : «باسمك اللهم وضعت جنبى

وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين..».

ثم نام . .

قلت بعد بضع دقائق :

– «من سلوى تلك؟! إنى أعرف أنه متزوج وله أربعة أولاد وبنت . . ».

رد السجين حسين وهو صديقه الحميم :

– «ألا تعرف قصة عبد الجواد؟».

قلت وكلى لهفة وشوق :

– «تكلم . . ».

– «إنه حديث يطول شرحه . . ».

همست :

– «معك حتى الفجر . . ».

قال حسين بعد أن أغفا بعض الإخوة الآخرين :

– «كان عبد الجواد فى الثامنة عشرة من عمره . . وهو يعيش فى حى من أحياء المدينة الشعبية حيث التشبث الشديد بالعرف والتقاليد . . وكانت أخته سلوى من أعظم بنات الحى جمالاً ورقة

وحيوية . . معظم شباب الحى كانوا يهيمون بها عشقًا وهيامًا . . حتى الطلبة الصغار فى شارعنا كانوا يكتبون عنها قصائد الغزل الصبيانية . . وتقدم لخطبتها «عباس» وهو صديق عبد الجواد الحميم . . رحب به عبد الجواد . . واستطاع أن يقنع أباه فوافق هو الآخر . . وأخيرًا أصدروا الأمر لسلوى كى تستعد للزواج من عباس . . كان الأمر مفاجأة بالنسبة لها . . لم تفكر قط فى يوم من الأيام أن تتزوج من عباس . . ارتبكت بادئ ذى بدء . . الواقع أنها كانت تتوق للزواج من ابن خالتها منصور كاتب الحسابات فى مصلحة التليفونات . . واعترفت لأمها بحقيقة مشاعرها . . وهكذا علم به الجميع . . وبات واضحًا أن سلوى ترغب فى منصور، وتأبى الزواج من عباس . . واحتد الصراع فى البيت الهادئ الآمن . . وأوشكت أمنية سلوى أن تتحقق . . كان عباس داهية خبيثًا . . آلمه الفشل؛ وأثارته خيبة المسعى . . والتقى بعبد الجواد ذات مساء . . صحبه إلى مكان بعيد . . قدم له عددًا من أكواب «النبيذ» والسجائر . . ثم همس عباس فى حزن :

- «عبد الجواد أنت أخى وحبيبى . . » .

رد عبد الجواد فى ثقة :

- «أعلم ذلك يقينًا . . » .

وأمسك عباس بيد صديقه وهتف فى جد :

- «والذى لا يدخل النار فى حب صاحبه، الجنة عليه حرام . . هكذا يقولون» .

توترت أعصاب عبد الجواد، وقال :

- «تكلم . . أنا لا أطيق صبراً . . » .

كان عباس يدرك أن صديقه انفعالى وعاطفى بطبعه، وإنه سريع التأثير بكل ما يقال له، وأنه يثق فيه ثقة عمياء، ولذا استغل عباس هذه النقطة فيه أبشع استغلال حينما قال :

- «أتدرى لماذا طلبت يد سلوى؟» .

قال عبد الجواد :

- «أعرف أنك تحبها . . لكن . . » .

قاطعه عباس قائلاً :

- «ليس هو هذا بيت القصيد . . أى إنسان يحب سلوى . . لكن الأمر المهم هو أننى أردت أن أستر عرضها . . من أجلك أنت . . ومن أجل الحب القديم الذى يربط بينى وبينك برباطه المقدس . . » .

خيل إلىَّ عبد الجواد أن رأسه يدور، وأنه يسقط من فوق قمة جبل إلى وادٍ سحيق، و همس فى وهن :

- «ماذا تقصد؟ !» .

قال عباس وهو يضغط على الحروف مؤكدًا دون رحمة :

- «منصور اعتدى على عفاف أختك . . سلبها أعز ما تمتلكه فتاة . . لم يراع حقوق القرابة ، وواجب الجوار . . الحى كله يعرف هذه الحقيقة ، ويتندرون بها إلا أنتم . . أكنت تريد أن أخدعك وأنا صديقك الوفى الأمين . . إن أختك دفعت أموالاً لمنصور وساقت إليه الشفاعات والرجاءات ساقت طوب الأرض كى يتزوجها حتى لا يفتضح أمرها . . فكيف تواجه الرجال فى الحى يا عبد الجواد بعد أن أصبح الناس -حتى الأطفال- يتندرون به؟!» .

أظلمت الدنيا فى عينى عبد الجواد . . خرج إلى الشارع تاركًا عباس وراءه . . خيل إليه أن العيون ترمقه فى سخرية ، وأن الناس يتهامسون بعاره . . كيف يرفع رأسه بعد اليوم . . دخل بيته كالمسحور ، وقصد لتوه غرفة نومه . . استل خنجره . . ذهب إلى سلوى . . كانت نائمة فى قميصها الوردى وعلى وجهها براءة الأطفال . . أيقظها . . عندما فتحت عينيها وجدته أمامها . . لم يمهلها أو يوجه إليها اتهامًا . . انهال على صدرها طعنًا . . صرخت . . تقاطر كل من بالبيت . .

قال الأب العجوز :

-«ماذا فعلت يا مجنون؟» .

هتف عباس فى افتخار :

- «انتقمت لشرف العائلة . . » .

مرت الأيام بالنسبة لعيد الجواد كحلم رهيب . . الصراخ . . الشرطة . . المحاكمة . . تقرير الطبيب الشرعى . . سلوى بريئة . . طاهرة كطهر الملائكة . . رقص عبد الجواد فرحًا فى قفص الاتهام . . أخذ يغنى أغنيات شعبية تمجيدًا لعفاف سلوى ونظافة سلوكها . . وحضور الجلسة يكون لهول المأساة . . وارتمى عبد الجواد على أرض القفص منتحبًا . . ثم أفاق لتوه وانتصب واقفًا ، وقال : «أين الشيطان عباس . . » ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغالاً شاقة . . تلك قصة سلوى . .

وعاش عبد الجواد فى سجنه نهبًا لعذاب الندم القاتل ، حتى التقى فى سجنه بأحد رجال الدين السياسيين ، وتولاه ذلك الرجل برعايته وتوجيهه ، ولم يخرج من سجنه إلا وقد أصبح من حزب ذلك الرجل ، وجاء عام ١٩٤٨م ، وتقدم عبد الجواد للتطوع فى صفوف الفدائيين . . وحارب وأسر . . وفرّ من الأسر . . وجاءت الهدنة . . وحدثت تحولات سياسية عديدة . . و حوكم عبد الجواد مرة أخرى . . لكن هذه المرة كانت بسبب الخلافات السياسية . . وصدر الحكم ضده بالسجن عشر سنوات . . .

وبعد أن انتهى الصديق السجين من قصة عبد الجواد عدت أنظر إلى ذلك الرجل النائم . . إنه صغير الحجم . . قصير وسيم . .

ومأساة سلوى مضت عليها سنوات طويلة . . لكن الجرح الغائر القديم لم يزل ينزف دمًا . . لم تضمده سنوات السجن الأولى، ولم تخفف مواقفه الشجاعة ولا سجنه الثانى . .

ومرت سنوات أخرى . . وعاد عبد الجواد للسجن معتقلاً مرة ثانية . . كان هذه المرة يبدو قد تقدمت به السن . . وخط الشيب رأسه . . كان هذه المرة هادئًا مؤمنًا بقضاء الله . . ينام فى سكينة . . ولا يعانى إلا من نوبات ربو متوسطة تداهمه من آن لآخر . . وحاولت مراقبته أثناء نومه . . لكنه لم يعد يهذى . .

ترى هل هدأ البركان المشتعل فى قلبه؟!

الله وحده يعلم . .



رجالٌ.. وذهب

حينما رآها لأول مرة دخلت قلبه، كانت تبحث عن عمل ترتزق منه، وهو رجل أعمال كبير، ونجح نجاحًا باهرًا، وكان الشعار الذى يردده دائمًا : «لا مجال للعواطف فى الأعمال المالية والتجارية»، ولذا يختار موظفيه بدقة بعد إجراء اختبارات عدة، ويراقبهم عن كثب، ويلم بكل ما يجرى حوله، ولا يقبل وساطة من صديق، ولا شفاعة من قريب، بخصوص العمل. . قالوا عنه: إنه جامد الإحساس بليد، قلبه من حجر، قال له أحد أصدقائه:

- «أنت رجل مادى صرف».

رد عليه فى ثقة:

- «أنا لا أعبد المادة، ولكننى أسخرها لمصلحتى، وفى ذلك سعادتى. . كلنا يبحث عن السعادة، وقد وجدتها فى ذلك النجاح الذى حققته. . ».

وعاد صديقه يقول:

- «لكنك يومًا ما ستموت، ولن تأخذ معك شيئًا. . ».

قال ضاحكًا:

- «وأنت أيضًا. . مصير مشترك لا نجاة منه، لذا لا أفكر فيه. . لا حل لمشكلة الموت. . فلننظر للحياة. . ».

عندما جاءته «نهال» تطلب وظيفة كتابية، أطال إليها النظر، ترى ما الذى يجذبه إليها، هذه الفتاة الفقيرة المسكينة ذات الثياب البسيطة الأنيقة؟؟ لم تكن مضطربة أو قلقة أو خائفة من النتيجة، على وجهها الجميل سلام ورضى من نوع عجيب، وفى عينيها الواسعتين فرحة واطمئنان طبيعيان، قال لها:

- «أريد أن أعرف إمكانياتك».

قالت: «أطبع على الآلة الكاتبة عربى وإنجليزى. . لدىَّ خبرة فى الترجمة والتلكس. . اشتغلت فى شركة طيران هذا كل شىء. . ».

كانت نهال لديها فكرة مسبقة عن دقته وجديته، وكانت تعلم أنها سوف تمر بسلسلة من الامتحانات والمقابلات، وإذا وفقت فى ذلك، فستعمل لمدة شهرين تحت التجربة. .

وسمعته يقول:

- «وافقت على تعيينك. . ».

نظر سكرتيره فى دهشة، وفغر فاه، هذه أول مرة تحدث مسألة التعيين بتلك السرعة، وعلى هذه الصورة، ونهال هى الأخرى لم تصدق ما سمعته، فاستفسرت قائلة :

- «أيمكننى أن أؤدى الاختبار اليوم؟».

قال باسمًا :

- «لقد تم تعيينك . . انتهى الأمر، وسوف تعملين هنا فى مكتبى مع طاقم السكرتارية . .».

كان «يوسف» فى حوالى الخمسين من عمره، يتدفق حيوية ونشاطًا، يبدو عليه وكأنه فى الأربعين، واضحًا صريحًا، يتخذ قراراته بحزم، لا مجال للتردد، ويمضى فى طريقه دون أن يلتفت إلى الوراء، ولا شك أن إلحاق نهال بالعمل على هذه الصورة كان مثار لغط وتعجب وهمسات خبيثة، وانتظمت نهال فى واجباتها الوظيفية بسهولة ويسر، كانت تعرف المنوط بها وتنجزه فى خفة ودقة، ظن بعض العاملين فى الشركة أنها أصبحت مركز ثقل أو قوة، وسرعان ما أخذوا يتقربون إليها، هذا يقدم لها زجاجة من المشروبات الباردة وآخر يقدم لها قطعة من الشيكولاتة، وثالث يحضر لها هدية كراديو صغير . . أو نوعًا من الروائح الفاخرة . . وتقرأ نهال فى عيونهم الاحترام الممزوج بالخوف، وتلحظ الاستسلام التام لكل مطالبها، ثم أخذ بعضهم يطلب منها التدخل

فى إنجاز بعض رغباته وآماله فى العلاوة أو الترقية، أو يطلب منها أن تذكره بخير لدى «يوسف» المليونير الناجح . . وكانت هى تدرك ما وراء تلك التصرفات وأسبابها، كانت تحللها تحليلاً فطريًا واعيًا، بذكائها، وكانت ترد دائمًا قائلة :

- «مَنْ أكون؟؟» .

فيرد أحدهم :

- «أنت كل شىء اليوم . . لا تتواضعى . . » .

فتقول فى دهشة :

- «لماذا؟؟» .

فيقولون :

- «هذا أمر لا يحتاج لتأويل أو تفسير . . لقد أحدث وجودك انقلابًا هائلاً فى الشركة . . يوسف لم يعد يوسف الذى نعرفه من سنين . . لسنا واهمين . . تلك هى الحقيقة . . »، وتهز نهال كتفيها وتمضى غير عابئة . .

الموظفون يتزاحمون على الباب، وطلاب الحاجات والمتعاملون مع الشركة ينتظرون دورهم، ونهال تدخل وتخرج فى أى وقت . .

وذات مساء . .

يوسف يجلس وحيداً في مكتبه . . لقد انتهى موعد العمل، وطلب نهال، دخلت وقد حملت حقيبتها استعداداً للانصراف .

قال يوسف في توتر :

- «فيم العجلة؟؟» .

قلت : «هل بقي شيء وتريدني أن أنجزه؟؟» .

صمت برهة، وأشعل سيجارة . . وهو نادر التدخين، رأيت فيه رجلاً آخر غير الرجل الذي يعرفه الناس، هذا الجامد الصلب ملامحه ترق وتلين . . إنه يبتسم . . يفرك يديه كطفل صغير أوقعه عبثه في ارتكاب خطأ ويخاف من عقاب والديه . . هذه أول مرة يطول فيها الصمت . . هي الأخرى شعرت بقلق مبهم . . ارتبكت الفرحة والطمأنينة التي تلازمها من قديم . .

قال وهو يحاول التماسك :

- «أنا أجيد المساومة والمضاربة في الأسواق . . » .

تنهدت في ارتياح ، وحمدت الله ، الموضوع موضوع عمل إذن، لكنه استطرد قائلاً :

- «لكن الأمور الكبيرة تحتاج لشيء آخر . . هناك أشياء لا تقبل المساومة . . » .

وقد قبلها، شعرت أن الأشياء توشك أن تتعرى دفعة واحدة، إنها تعرفه، يدخل فى موضوعه دون مقدمات، وإذا لجأ للتمهيد، فإنه يستعمل كلمات قليلة . .

وجاءها صوته ليضع حدًا لحيرتها الشديدة:

- «أنا أرغب فى الزواج منك . .».

ارتعشت ركبتاها، نظرت إليه، النظارة ذات الإطار الذهبى وساعة الرولكس الذهبية، وخاتم البلاتين، حتى المسبحة التى يمسك بها أيضًا حياتها من ذهب، وعلى مكتبه تمثال ذهبى صغير لنسر فارد أجنحته . . رجل من ذهب . . وعاد يقول:

- «ما رأيك؟؟».

إنه قلما يطلب رأى أحد، دائمًا يصدر الأوامر، يا إلهى!! ما الذى يحدث الآن؟؟ إنها لم تشترِ بعد أية ملابس جديدة، وجيدها عارٍ من الحلى، وكذلك معصمها وأذناها . . إنها ضئيلة . . بالقياس إليهِ لحد كبير . . هل يريد الزواج حقًا؟؟ أم أنها حيلة من حيل التجار ؟؟ وتذكرت ضائقتها المالية . . تذكرت حسام خطيبها . . مسكين وفقير مثلها . . فكرت هى وهو أن يبحثا عن حل . . نعم . . فلتبحثى عن عمل . . راتبى وحده لا يكفى . . وخرجت إلى الطريق تبحث عن عمل . . حفيت قدماها بحثًا عن الرزق . .

اصطدمت بالذئاب والثعالب والضائعين . . وشاء الله أن يفتح لها باب الأمل على يد يوسف . . قالت وقتها : «هذا رزقي ورزق حسام . . إن الله أراد لنا الستر والخير . . ببركة دعاء الوالدين . . إن الله لا يترك أحدًا يمد إليه يده . . والعالم ملىء بالقلوب الطيبة . . » لكنها الآن ترى أمرًا لم تحسب حسابه . . يوسف يريد أن يتزوجها . . لماذا هى بالذات؟؟ إنه يريد أن يشترى بذهبه . . بملايينه عشرات الفتيات .

ازداد توتره، وقال :

- «فيم تفكرين؟؟ ألا أعجبك؟؟» .

همست والدموع توشك أن تطفر من عينيها :

- «لكنى مرتبطة . . » .

قال : - «لم تتزوجى بعد . . » .

قالت : - «أجل . . لكن بيننا عهد . . » .

وقف ثم استدار حول مكتبه، واقترب منها قائلاً :

- «أظنك ناضجة العقل . . وقد تخطيت سن المراهقة . . وأنا لست شابًا طائشًا . . إننى أعرف عنك كل شىء . . لا تسألينى كيف . . المهم أن مصلحتك تقتضى أن تعيدى التفكير فى . . » .

شهقت باكية، وهرولت إلى الخارج، واصطدمت بالسكرتير الذى كان واقفًا وراء الباب. وهتفت فى عصبية والدموع تبلل أهدابها:

- «أخبر سعادة المدير أننى مستقيلة..».

كان يوسف يجلس فى مكانه السابق، والعرق يتقاطر على جبينه، ونظراته شاردة حزينة، تلعثم السكرتير، لم يكن يعرف ماذا جرى، ولا كيف يبدأ الحديث، تناول يوسف واحدة من المحارم الرقيقة، ثم أخذ يجفف عرقه، ويقول:

- «سمعتها تقول شيئًا..».

هز السكرتير رأسه فى خوف، وقال:

- «لقد استقالت..».

لأول مرة فى حياته يرى إنسانًا يدوس على الوظيفة.. والذهب والمجد من أجل كلمة.. فليسموها عهدًا.. أو وعدًا.. أو خطبة.. أو فليسموها حبًا.. أيمكن أن تصل الحماقة بامرأة أن تضحى بهذه الحياة الخرافية لتحافظ على شاب بسيط فقير؟؟

ورفع يوسف رأسه، وقال للسكرتير:

- «أتعلم أننى طلبت منها الزواج فرفضت؟؟».

ضحك السكرتير فى بلاهة، وقال:

- «مجنونة بنت كلب . . إنها لا تساوى بصلة، وأنت . . ».

قاطعه يوسف صارخًا:

- «اخرس أنت حيوان . . ».

سقطت الأوراق من يد السكرتير، وسرعان ما انحنى يجمعها فى اضطراب وانزعاج وهو يتمتم:

- «آسف . . آسف . . لم يكن قصدى أن . . ».

لوح يوسف بيده قائلاً:

- «كفى . . ».

وعاد لشروده، وأخذ يقول:

- «ما تعودت أن يرفض لى أحد طلبًا . . وأعرف لى زوجة وستة من البنين والبنات . . لم أنهزم فى معركة قط . . كنت أضحك على ما يقولون إن الإنسان مسيّر لا مخيّر . . عندما رأيتها دخلت قلبى . . بلغتكم الدارجة . . أحببتها . . كلمة حب لا تكفى لكنى لا أعرف كلمة فى اللغة سواها . . خيل إلىّ أنها شىء آخر غير النساء قاطبة . . كنت أعتز بملايينى أما اليوم فقد عرفت شيئًا آخر . . كنزًا آخر من أروع كنوز الدنيا . . اسمه الحب . . شىء لم أصادفه فى حياتى كلها . . كنت أبحث عنه فى أسرتى . . فى مكتبى . . فى المجتمع . . لم أكن أعرف أن الذى أجد فى طلبه دون أن أدرى

مجسمًا فى تلك الفتاة النحيلة . . الجميلة ذات الروح الآسرة . . حسبت المادة وسيلة للوصول لأى شىء أكنت مخطئًا طوال هذه السنين؟؟ آه . . انتظر . . أشعر بقبضة هائلة تعتصر قلبى فى قسوة . . استدع الطبيب . . على الفور . . يجب أن تسرع . . لا تخبر أحدًا بأى شىء مما جرى . . آه . . يا ربى . . » .

●●●

كانت الشركة فى اليوم التالى فى صخب عارم، الجميع يتحدثون عن النوبة القلبية التى فاجأت المدير، فمن قائل أنها بسبب الإرهاق فى العمل، ومن قائل بأن ضغط الدم قد ارتفع فجأة، وإن نسبة الكولسترول فى الدم عالية، أو انخفاض فى قيمة الإسترلينى والدولار . . وغير ذلك من الأسباب الكثيرة .

واستطاع الطبيب أن يجرى الإسعافات الروتينية، ونقل المريض إلى غرفة الإنعاش . . كما أمكنه أن يعرف من السكرتير كل شىء بعد أن أقنعه بأهمية توضيح الأمور فى علاج المريض وهو شخص غير عادى .

وتقاطر الموظفون على المستشفى يحملون باقات الزهور . . لم يكن يوسف الراقد تحت خيمة الأكسجين يكترث لشىء . . لكن السكرتير أتى إليه فى اليوم الثالث، وقال :

- «نهال تريد زيارتك. . ».

أشرق وجهه بالفرحة، وقال «أدخلوها» ودخلت مذعورة حزينة. . خطفت يده وقبلتها. . خرج الجميع. . بقيت نهال والطبيب والمريض. . قالت نهال:

- «لقد فكرت جيداً. . واقتنعت أخيراً. . وعندما يتم الشفاء سوف. . ».

وضع يده على فمها باسمًا، وقال:

- «استدع خطيبك. . سوف يستلم وظيفة عندى. . ولقد قررت أن تكون تكاليف الزفاف وإيجار الشقة على حسابى. . ».

احتضنته منتحبة وهى تقول:

- «أنت أخى. . وأبى. . و. . ».

همس: «لا تقولى شيئًا. . لقد تعلمت منك الكثير. . ».

والتفت إلى الطبيب قائلاً:

- ما هو أثمن معادن الأرض يا دكتور؟؟

قال الطبيب :

- «الذهب طبعًا. . ».

رد يوسف:

- «بل قلب الإنسان الشريف. . لكن للأسف. . أنتم الأطباء لا تعرفون عنه سوى النبضات والعضلات والشرايين التاجية التى تغذيه. . وتجاهلت أهم غذاء له. . أتفهم؟؟».

هز الطبيب رأسه قائلاً:

- «نعم. . الحب. .».

وابتسم يوسف قائلاً:

- «إذن خذوا زجاجات الجلوكوز والمحاليل والأوكسجين واملئوا أوانيكم بالحب. .».

وضحك يوسف والطبيب. .

وضحكت نهال بصدق على الرغم من الدموع التى ما زالت عالقة بأهدابها. .



ليل الحيارى

«يا إلهى . . لشد ما تغيرت ! ! «رشيدة» الطفلة البريئة الضاحكة والتى لا تعرف الهموم والأحزان . . والتى تصدق كل الناس . . وتهرع للأهل والأصدقاء فى فرحة غامرة . . رشيدة تلك لم يعد لها وجود الآن . . أصبحت أيها الطبيب إنسانة أخرى . . ليتهم يغيرون اسمى القديم ، فيصير لى اسم جديد يتناسب مع الصورة التى أنا عليها الآن . . » .

ابتسم الطبيب ، وقال :

- «أى اسم تختارين؟؟» .

قالت رشيدة وهى شاردة :

- «سهاد . . نعم اسم سهاد الآن هو أنسب الأسماء لى . . لم أعد أستعذب النوم . . الأرق يمزقنى . . وإن غفت عينى أجدنى أستيقظ مذعورة من نومى . . الأحلام المزعجة تملأ قلبى بالرعب ، والكوابيس التى لا ترحم تشل حركتى حتى يخيل إلىّ أننى مت . .

وأحاول أن أتحرك أو أصرخ بلا فائدة . . ليلى الدامس أشباح رهيبة . . صور الهموم والأسى لا تفارق خيالى ليلاً أو نهاراً . . لهذا حاولت الانتحار، وقلت وأنا أتجرع السم: «افرحى يا أمى . . افرحى أيتها القاتلة الأنانية . . » لكنهم للأسف أنقذونى . . حتى حريتى فى أن أختار نهايتى حرمونى منها . . أية حياة تلك التى تريدنى أن أحرص عليها؟؟ لا معنى للحياة بدون السعادة . . وإذا فقدت الحياة ذلك المعنى فهى لا شك بالموت أشبه . . بل لعلها أتعس من الموت . . فالموتى يذهبون إلى عالم آخر . . أفضل بكثير من عالمنا البائس . . » . .

قال الطبيب فى هدوء:

- «الانتحار ليس حلاً . . وهو يغضب الرب، ثم إنه لا يحل المشكلة . . وبدلاً من أن نفكر فى الموت علينا أن نبحث عن طريق للنجاة . . لماذا لا نتعلق بالأمل؟؟ لماذا لا نحلم بعالم أفضل . . ثم نخطو الخطوة الأولى فى الطريق الطويل، ونجد فى الوصول إليه؟؟» .

كانت الحجرة هادئة خافتة الضوء، ورشيدة عبد العال مسترخية على سرير ناعم نظيف . . والطبيب يجلس قبالتها والمعطف الأبيض مع السماعة المدلاة من عنقه تضفيان عليه صفاء من نوع مريح . .

قالت رشيدة:

- «لست أول طبيب أتيت إليه.. ذهبت إلى خمسة أطباء قبلك.. وسافرت إلى طبيب خارج البلاد معروف بتمكنه وخبرته فى العلل النفسية.. تناولت عشرات العقاقير الطبية.. وصفوا لى صدمات كهربائية على الدماغ.. ماذا أقول لك؟؟ أمى سامحها الله أخذتنى أيضًا إلى كتّاب التعاويذ والأحجبة.. لقد مللت كل هذه الأساليب.. حتى أنتم معشر الأطباء لم أعد أطيق رؤياكم.. فحوصاتكم مكررة.. كلماتكم متشابهة.. جلساتكم بمواعيد وبحساب.. كثرة المترددين أفقدتكم تمييز نوعيات المرضى.. إنهم مجرد حالات كحيوانات التجارب.. كلنا فئران أو أرانب.. والإحصائيات عندكم مثلاً خمسون حالة فصام.. ثلاثون حالة اكتئاب.. إنكم تنسون أن كل مريض من هؤلاء المرضى عالم قائم بذاته.. لكنكم تتبعون الأسلوب نفسه فى العلاج.. أنا.. رشيدة عبد العال.. عنوان صارخ على فشلكم وفشل أسلوبكم.. أنا أفهم فى الأمراض النفسية أكثر منكم..».

ضحك الطبيب بصوت عالٍ، فهتفت:

- «أتسخر منى؟؟ إنكم مغرورون».

واقترب منها، ثم أمسك يدها قائلاً:

- «لقد أصبت كبد الحقيقة..».

سحبت يدها فى ذعر، وهتفت ثانية:

- «لا تلمسنى..».

رفع يده باسمًا، وتمتم:

- «حسنًا. . لكن الطبيب له الحق فى أن يفحصك. . أن يختبر نبضك. . ويجس أحشاءك. . ويسمع دقات قلبك. .».

قالت رشيدة:

- «أعرف. . وغالبًا ما تفعلون ذلك بطريقة باردة خالية من أية مشاعر. . وكأننا تماثيل من رخام. . بين أنامل خبير للتحف. .».

شرد الطبيب بضع لحظات، ثم هز رأسه، وقال:

- «الحقيقة أن رأيك فى الأطباء - وخاصة النفسانيين منهم- هو رأيى تمامًا. . أنا لا أكذب عليك. . ولدىَّ الدليل على صدق ما أقول. . إن لى تجارب فى كتابة القصة والرواية. . وقد كتبت قصة بهذا المعنى بالضبط. . أتريدين رؤيتها؟؟».

جلست رشيدة فى سريرها، وقد بدت الفرحة فى عينيها، وظهر على وجهها نوع من التشوق العجيب. . ثم قالت فى لهفة: «أين هى؟؟».

وخطا الطبيب صوب مكتبة صغيرة فى الغرفة، ثم أخذ يتأمل الكتب والمجلات المرصوصة، وبعد فترة وجيزة عاد وفى يده مجلة

أسبوعية مصورة، ثم أخذ يقلب فيها إلى أن وصل إلى بغيته، ثم اقترب من رشيدة وأشار إلى المكان الذي كتب فيه قصته التى استغرقت حوالى صفحتين بالإضافة إلى الصور المعبرة التى رسمها فنان المجلة . .

قالت رشيدة :

- «أتسمح أن تعيرنى هذه المجلة؟؟» .

- «بالطبع . . خذيها هدية . . لأن لدى أربع نسخ منها . . بل ويمكنك أن تقرأينها الآن . . » .

قالت رشيدة :

- «إن وقتك لا يسمح . . وموعد الجلسة الرسمى أوشك على الانتهاء . . والمرضى ينتظرون . . » .

وضع الطبيب يده فى جيب معطفه الأبيض، ثم قال :

- «ليس عندى مرضى سواك اليوم . . لقد كنت ألغيت مواعيد باقى المرضى منذ أسبوع لأسباب عائلية . . كنت سأسافر بعد أن أجلس معك . . لكنى الآن قررت عدم السفر . . سأبقى معك هنا إلى أن تطلبى منى ترك العيادة . . الأمر الثانى هو أننى أقترح أن تقيمى بالقسم الداخلى عندى لفترة أسبوعين . . هذا إذا وافقت . . ووافق أهلك . . » .

اختطفت يد الطبيب وقبلتها فى امتنان بالغ، فسحب الطبيب يده فى رقة وهو يمازحها قائلاً:

- «لا تلمسينى..».

ضحكت لأول مرة من أعماقها، وهى تقول:

- «واحدة بواحدة..».

وصمتت برهة، ثم عادت تقول:

- «أبى مشغول فى تجاراته الواسعة.. إنه مليونير ولا نراه إلا نادراً.. وأمى.. آه.. أمى سوف تغمرها السعادة عندما تعلم أننى سأبقى هنا.. إننى واثقة أن أمى تكرهنى، وتعتبرنى عبئًا ثقيلاً عليها.. هذه المرأة التعسة تريد أن يخلو لها الجو..».

وعادت إلى شرودها مرة أخرى.. كانت نظراتها وملامحها تنبئ عن أنها هائمة فى عالم بعيد غامض مثير.. وحاول الطبيب أن يخرجها من تلك الأحلام المرهقة السوداء، وهمَّ أن يقول شيئًا، لكنها عاجلتها قائلة:

- «أتعرف أننى أنا الأخرى أكتب القصة والشعر ولى بعض المذكرات المهمة.. أؤكد لك أن أسلوبى سوف يعجبك.. وموضوعات التعبير التى أكتبها فى المدرسة كانت مثار اهتمام الجميع.. وخاصة الموضوعات القصصية ذات الطابع المأساوى..

لأنى دائمًا أحب الروايات الحزينة. . أقرؤها ودموعى على خدى. . وأنتحب من البكاء. . النهايات السعيدة فى السينما والروايات والتلفزيون تضايقنى. . إنها كذب. . كذب. . وتخدير لمشاعر الناس. . ليس فى الحياة سوى الظلم والفساد والكذب. . ».

قال الطبيب :

- «شىء رائع أن تكونى أديبة. . إن لك تجربة مثيرة فى الحياة، وعندما تحسنين التعبير عنها فستهزين الوسط الأدبى إن «فرانسوا ساجان» كاتبة القصة الفرنسية الشهيرة، كتبت أولى رواياتها وهى فى الثامنة عشرة من عمرها. . فى مثل سنك تمامًا. . وسمتها «مرحبًا أيتها الأحزان».

هتفت رشيدة فى انفعال :

- «رائع. . تمنيت أن أقرأ هذه القصة. . لقد سمعت عنها. . لكنك تعرف الكثير عن الأدب وتكتب القصص أيضًا. . أنت طبيب وأديب. . الحقيقة أننى ابتدأت أثق بك، وأرتاح إليك. . ».

أشرق وجه الطبيب بالسعادة، وقال :

- «يسعدنى ذلك، وأعتقد أننا سنصل بإذن الله تعالى إلى حل لمشكلتك. . ».

نظرت إليه فى احترام، وابتسمت. . ثم فتحت المجلة وأخذت

تقرأ فى القصة التى نشرها . . وتسلل الطبيب خارجًا دون هدف سوى رغبته فى أن يتيح لها التفرغ كى تقرأ، لكنه بعد أن ذهب إلى الغرفة الثانية تذكر قصة «مرحبًا أيتها الأحزان»، فتناول التليفون ثم استفسر عن القصة فى بعض المكتبات التى يعرفها حتى أمكنة العثور على واحدة من هذا القصة، وطلب من صاحب المكتبة أن يرسلها إليه على الفور فى العيادة، وبعد ما يقرب من نصف ساعة دخل عليها وكانت قد انتهت من قراءة قصته، واضطجعت على سريرها الوثير، عاقدة يديها تحت رأسها . . وعيناها ناظرة إلى السقف . . كانت تفكر فى عمق . .

وفاجأها بقوله :

- «لقد أحضرت لك القصة . .» .

وثبت من سريرها فى فرح صبيانى، واختطفتها منه، وأخذت تقلب صفحاتها فى شغف . . وهى تتمتم :

- «أشكرك . . أشكرك . . لن أنسى لك هذا الفضل ما حييت . .» .

ثم عادت تنظر إليه فى غير قليل من التوسل والرجاء، وهمست :

- «ترى هل ستظل تمنحنى عطفك ورعايتك هكذا دائمًا . . أما أنك سوف تملنى فى يوم من الأيام؟؟ آه . . يجب أن أرضخ للواقع

المرير.. إنك تعمل.. ووراءك مرضاك ومستقبلك ومسئولياتك.. أعرف ذلك.. لهذا لن أتضايق كثيراً إذا صرفتك مشاغل الحياة عنى.. بالقطع سأحزن.. وقد أبكى كعادتى.. لكن ما الحيلة إذا كانت الحياة تغص بالحرمان؟؟ وهل من المعقول أن ألزم الآخرين بلون معين من التعامل؟؟.. عندئذ سأكون ظالمة.. أو مجنونة كما تقول أمى- سامحها الله- فى كثير من الأحيان..».

خلع الطبيب معطفه الأبيض، وقال:

- «كونى واثقة أننى سأبقى إلى جوارك حتى تصلى إلى شاطئ الأمان..».

عادت للشرود، وهمست:

- «وأين هو شاطئ الأمان؟؟ إنه بعيد.. بعيد.. بعيد.. بل إننى لا أراه تمامًا كما كنت أقف على شاطئ البحر الواسع وأتساءل عن الشاطئ الآخر.. وأظل أحملق فى السماء والأمواج.. ثم أعود إلى البيت وخيالى المكدود ما زال يلح فى السؤال.. عن الشاطئ الآخر.. شاطئ السلام والسعادة والحب والخير.. ولهذا فإن الشاطئ الآخر كان- وما زال- حلمًا من الأحلام.. وفى الأوقات القليلة التى كانت عينى تغفو فيها.. كنت أرى نفسى وكأنى قد قفزت إلى البحر.. ثم أصارع الأمواج العاتية بساعدي الضعيف.. وأجاهد فى الهروب من سمك القرش مخافة أن

يمزقنى . . الغريب يا دكتور أن سمكة القرش أحيانًا كانت تشبه وجه أمى . . ابتسامتها الخادعة . . نظراتها الشريرة . . حركاتها المتمردة . . وأحيانًا كانت سمكة القرش تشبه ذلك الملعون «ماهر» . . هذا الأفاق . . عيناه كعينى ثعبان . . شاربه الكث يختلط فيه الشعر الأبيض بالشعر الأحمر . . سوالفه الطويلة تغيظنى . . لو كان الشيطان رجلاً لما كان سوى أمى . . أسماك القرش تطاردنى . . وأنا ألهث . . والأمواج عاتية . . وأنا ألهث . . وأكاد أغرق وعيناى تبحثان عن الشاطئ الآمن البعيد . . فأضرب فى يأس ساعدىّ وساقىّ . . إن الماء الأسود يكاد يملأ فمى وأنفى . . وأشعر بالعجز التام عن التقاط أنفاسى فأصرخ . . وأصرخ مستنجدة . . وأهب من نومى مذعورة وأنا أبكى . . وأستغيث . . ثم تدخل أمى، وتقول لى: نامى يا مجنونة . . ».

ونظرت رشيدة فجأة صوب الباب، وقد اكتسى وجهها بالغضب، وزاغت عيناها، وصاحت:

- «اخرجى . . اخرجى . . لا أريد أن أراك . . ».

واستدار الطبيب، ليرى أم رشيدة واقفة لدى عتبة باب الغرفة . . كانت امرأة ممتلئة فى حوالى الثامنة والثلاثين من عمرها . . يغرق الكحل عينيها . . وتتدفق حيوية وجمالاً، وابتسمت فى هدوء غريب . . وقالت:

- «رشيدة مسكينة يا دكتور . . هلوساتها كثيرة . . لا أكاد أفهم سببًا مقنعًا لتصرفاتها المشينة تلك . . المعارف كلهم يقولون : إن لوثة أصابتها . . لقد جلبت علينا الفضيحة والعار . . » .

وثبت رشيدة من سريرها مشوشة الشعر ، محتقنة العينين وقالت وهى تضرب بسبابتها اليمنى على صدرها فى عصبية شديدة :

- «أنا؟؟ أنا التى جلبت لكم العار والفضيحة؟؟» .

تصرف الطبيب بسرعة ، وحاول بلباقة أن يقنع الأم بأن تخرج حتى تتيح له فرصة العلاج ، فخرجت وصفعت الباب وراءها ، ثم عاد الطبيب ، وأعد محقنًا ، وسكب فيه عقارًا منومًا ، ومدت رشيدة يدها فى استسلام لأوامر الطبيب . .

وبعد فترة وجيزة كانت رشيدة نائمة ، وفى يدها قصة «مرحبًا أيتها الأحزان» ، وعلى صدرها ارتمت يدها الأخرى ممسكة بالمجلة التى كتب الطبيب فيها قصته القصيرة . .

واستطاع الطبيب بعد ذلك أن ينفرد بالأم ، ويشرح له أهمية بقاء ابنتها تحت العلاج والإشراف الطبى بعيدًا عن أية مؤثرات خارجية . . بل إن الأم قد بدا عليها الارتياح لهذا القرار ، وكان ذلك جليًا فى تصرفاتها وسلوكها وكلماتها . . كانت تقول : «رشيدة ابنتى دائمًا كانت غريبة التصرفات . . تتدخل فيما لا يعنيها . . تسأل عن كل شيء . . تشك فيمن حولها . . الأمور

العادية تشم من ورائها استنتاجات شاذة . . الكلمات التافهة تجعل منها كارثة . . كما يقولون تجعل من الحبة قبة . . لعنة الله على اليوم الذى ولدتها فيه . . ولكنى مع ذلك أحبها . . قلب الأم . . لست أدرى ماذا أقول لك؟؟ هل فينا من يكره ابنته؟؟ هى وحيدتى . . وليس لدىَّ غيرها سوى ولدين صغيرين . . والفيلا الفخمة . . وبدل السيارة الواحدة ثلاث سيارات . . هى غارقة فى الذهب والحرير . . لو كانت سعادتها تشترى لدفعنا ما تطلبون . . ».

كانت الأم تلوك فى فمها قطعة من العلك (اللبان)، ومن آن لآخر تبرق سنتان ذهبيتان وراء شفتيها الدسمتين، وجيدها البض مثقل بعقود المجوهرات والذهب، إنها تلبس زيًا محتشمًا بعض الشيء لكنه يكشف عن عنقها وأعلى صدرها، وعن يدين بضتين تزينهما الأساور والساعة الصغيرة، وفى أصابعها خواتم السوليتير . . قلت مترددًا :

- «مَنْ ماهر هذا؟؟».

قالت الأم فى هدوء ودون أدنى اكتراث :

- «يساعد زوجى فى إدارة أعماله، إنه رجل مخلص جدًا ويعزى إليه الكثير من النجاح الذى يحققه «عبد العال»، ونحن نثق فيه ثقة عمياء، ونحبه . . إنه متفرغ تمامًا لخدمتنا والسهر على راحتنا ليلاً ونهارًا . . لا ينشغل عنا بولد ولا بنت . . إنه غير متزوج . .

رجل نادر المثال . . مطيع دائمًا . . أنموذج حى للإخلاص والصدق . . خبير بكل شىء . . أقرباؤنا كانوا يسرقون أموالنا، أصدقاؤنا خدعوا زوجى أكثر من مرة . . لكن ماهر هو الوحيد الذى أثبت لنا أن الدنيا بخير . . وأن فيها أقوامًا شرفاء . . وأنت تعرف بقية القصة . . ماذا يحدث عادة عندما ينجح إنسان فى عمله، ويثبت جدارته بألف دليل ودليل، ويحوز ثقة رب المال؟؟؟ الجواب معروف . . الحاقدون يكيدون له، يدبرون له المؤامرات، ينشرون حوله شائعات السوء . . يرمونه بأحط الصفات وأرذلها . . هكذا الناس فى كل زمان ومكان . . المصيبة أنهم استطاعوا أن يؤثروا على ابنتى حتى زرعوا فى قلبها الشك والخوف . . وألصقوا بى وبالرجل المسكين أبشع التهم . . حاشا لله إنه إنسان نظيف طاهر . . ومع ذلك فإن ابنتى إذا رأته يكلمنى اعتبرت ذلك جرمًا كبيرًا . . وإذا أحضر لى طلبًا من الطلبات فهو فى رأيها خسيس خبيث . . وإذا عادت من مدرستها، ووجدته فى البيت تخيلت أشياء رهيبة والعياذ بالله . . وفى كل مرة أحاول جاهدة أن أصرفها عن الانشغال بأمر هذا الرجل، وعدم التفكير فيه نهائيًا، لكن بلا فائدة . . وتطور الأمر حتى أخذت المسكينة تشكو من صداع دائم . . من أرق . . وتبكى بلا سبب . . وتشرد . . وتكلم نفسها . . وتهب من نومها مذعورة . . أنت تعرف . . لا شك أن مئات الحالات الشبيهة مرت عليك فى عيادتك . . هذا الجيل أمره غريب . . والمصيبة أنها فأجات

أباها ذات مـرة بكلام لا يمكن تصـديقـه، ورمـتنى بكل رذيلة، وألصقت بالمسكين ماهر تهمًا شائنة، هو منها براء. . إنها تخيلات كلها، ولا أساس لها من الصحة. . ».

سدد إليها الطبيب نظرات فاحصة، وقال:

- «وماذا كان رد الفعل عند أبيها؟؟».

أخرجت الأم من حقيبتها علبة سجائر، وتناولت واحدة ثم أشعلتها، وقدمت للطبيب واحدة، فاعتذر شاكرًا، ثم جذبت نفسًا، وقالت:

- «عبد العال رجل طيب عاقل، وهو متأكد تمامًا من نظافة مسلكى، ومن إخلاص ماهر. . وأنا فى الحقيقة كنت قد شرحت له مسبقًا حالة ابنته العقلية، وتصوراتها المريضة. . وحذرته من تصديق أى كلام تقوله. . وعندما أخبرته البنت بالخزعبلات التى تعشش فى رأسها المشوش فهم الحقيقة التى أكدتها قبل ذلك. . بل إننى فعلت أكثر من ذلك. . طلبت من ماهر ألا يأتى إلى بيتنا مرة ثانية. . الواقع أن زوجى غضب منى، وكان له كل الحق فى غضبه. . فقد أثر ذلك على سير الأمور فى البيت. . واستأجرنا له شقة بعيدًا عن حينا. . . وأصر زوجى على عودته. . ولكنى رفضت من أجل المسكينة ابنتى. . لكن هل شفيت؟! هاأنت تراها تزداد سوءًا. . ».

ثم رفعت الأم رأسها إلى أعلى، وقالت:

- «يا إلهى ماذا أفعل؟! إنه قدر ومكتوب علينا أن نعيش تلك المأساة..».

وصمتت برهة وهى تفكر ثم قالت فى حماسة:

- «هذه البنت لن ينصلح حالها إلا إذا تزوجت..».

قال الطبيب:

- «هل أنت متأكدة من ذلك؟!».

- «كل التأكيد يا دكتور.. أنا أنثى وأعرف.. أنت طبيب وتفهم الكثير، لكن الكتب ليس فيها كل شىء..».

ابتسم الطبيب، وقال:

- «الحقيقة أن الكتب لم تترك شيئًا..».

ثم عاد الطبيب ليسألها فجأة:

- «ألم يأتِ ماهر للبيت مرة أخرى؟!».

قالت دون اكتراث:

- «مرات قليلة.. لأمر مهم وتحت إلحاح.. إنه يحرص دائمًا على سمعة الشركة وسمعة زوجى.. قلت لك إنه إنسان عاقل ممتاز مطيع..».

وعاد الطبيب ليقول متحرجًا :

- «ما هو نشاطك بالبيت؟!» .

نظرت إليه طويلاً فى دهشة، ثم قهقهت قائلة :

- «محضر تحقيق فى النيابة أم ماذا؟! أتريد علاجى أم علاج ابنتى؟! أعتقد أنك قد تخطيت حدود عملك . . أنا لست جاهلة . . وأفهم ما يدور فى رأسك . . لقد قضيت فى التعليم سبع سنوات . . ولما طلبنى عبد العال قبلت على الفور . . كان رجلاً ناضجًا مرموقًا . . صحيح أنه يكبرنى بعشرين عامًا . . لكنى لم أشعر بهذا الفارق . . إننى عشت معه وما زلت فى أقصى حالات السعادة . . لكن لماذا تسألنى هذه الأسئلة؟! كن صريحًا معى . . » .

حك الطبيب رأسه، وقال :

- «لمجرد معرفة الجو العائلى الذى تعيش فيه رشيدة . . أنا لا أوجه اتهامًا . . ليس هذا من عملى . . أنا طبيب . . وسر المهنة أمر بديهى . . . » .

أطفأت سيجارتها فى عصبية، وقالت :

- «وماذا تفعل زوجة مليونير فى بيتها؟! إن لديها الخدم والحشم والطباخين والسائقين . . إن نصيبى فى الحياة أن أسعد وأنعم، وأداعب أولادى وأسعد زوجى . . ماذا بعد ذلك سوى السهرات

الحلوة، والجلوس أمـــام التلفـــزيون، وزيارة الصـــديقـــات واستقبالهن. . هل لديك أسئلة أخرى؟!».

قال الطبيب:

- «رشيدة فى أى صف من الصفوف فى المدرسة الثانوية. . ».

قالت فى ضيق:

- «لا أعرف. . اسألها».

وعاد الطبيب بعد فترة صمت قصيرة يقول:

- «هل لها علاقة بأحد الشبان؟!».

قهقهت ثانية، وقالت:

- «من يحب مجنونة كهذه؟!».

- «ألم تقـولى إنك أنثى وتعـرفـين، وإن الزواج قـد يصلح حالها؟!».

- «أجل. . إذا أشرت بأصبعى لأى رجل فسوف يهرول سعيدًا للزواج منها. . ».

هبت المرأة واقفة، وقالت فى شىء من التبرم:

- «قُفل المحضر. . ».

وأراد الطبيب أن يضفى جوًا من المرح عند نهاية اللقاء فقال:

- «ليس لديك أقوال أخرى؟!».

ضحكت، وقالت:

- «أقوال كثيرة.. وغدًا نلتقى..».

وعادا للضحك عندما قال الطبيب:

«إفراج بالضمان الشخصى».

●●●

استطاع الطبيب فى الأيام التالية أن يكتسب ثقة «رشيدة» ومن خلال هذه الثقة عبّرت له عن الكثير من آلامها وأحلامها، ولاحظ فى البداية أنها تستغرق معه فى الحوار، وأثناء الجلسات كثيرًا ما كانت تتخلص من بعض همومها وهواجسها، وتنطلق على سجيتها فى التعليق والضحك، ولا يكاد يكفهر الجو إلا إذا جاء ذكر أمها وماهر.. والواقع أن الطبيب لم يكن قادرًا على أن يصدر حكمًا نهائيًا عادلاً فى قضية شائكة كتلك القضية المتعلقة بالأم، فالطبيب يعرف عن يقين أن هناك بعض المرضى الذين يعانون من هلوسات بصرية وسمعية بل وشمية أيضًا، فيتصورون وجود أشخاص وهميين، ويدور بينهم حوار نسمعه من طرف واحد، ويؤكد المريض أنه يسمع من يخاطبه أو يراه.. هذه ظواهر ثابتة ومسجلة فى كل كتب الأمراض النفسية.

القضية إذن شائكة . . ومن الظلم أن يدين الطبيب أم رشيدة بالخيانة، لعل الشك راوده بقوة فى نزاهة تلك المرأة، لكن إدانتها أمر آخر صعب التحقيق، ومن جانب آخر فإن تكذيب الطبيب لرشيدة يحمل فى طياته المخاطر، فقد تكون صادقة فى أقوالها، وإذا فهمت أن الطبيب يشك فى صدقها، فقد يخسر ثقتها إلى الأبد، ومن ثم يتعذر العلاج، ويتأكد الفشل . . وذات صباح قالت رشيدة :

- «دكتور . . ».

- «نعم . . ».

- «لقد أعجبتنى يا دكتور قصة «مرحبًا أيتها الأحزان» إنها قصة مؤلمة . . ».

قال الطبيب :

- «وما الذى أعجبك فيها؟!».

شردت ببصرها إلى آفاق مجهولة، وقالت :

- «مسكينة تلك الفتاة . . بطلة القصة . . إنها تعيش فى أسى وغربة وعذاب . . لا يكاد يشعر أحد بدموعها وآهاتها . . إنها لا تستطيع أن تجد خلاصًا من رائحة المستنقع الآسن الذى ينضح بالإثم والأنانية فى مجتمعها . . أليست مأساة؟!».

أمسك الطبيب بمقعد صغير، ثم قربه من سرير رشيدة، وجلس إلى جوار سريرها وهو يقول:

- «سنوات المراهقة بالغة الحساسية.. والتناقض الذى يراه المراهق أو المراهقة بين الأحلام والواقع تناقض مريع.. المستنقعات يا رشيدة تملأ الأرض..».

اعتدلت فى جلستها، وقالت بحزم:

- «كلا.. المستنقعات فى بعض الأماكن فقط.. المجتمعات النظيفة تردم هذه البرك، وتزرع مكانها الورود والرياحين..».

رد الطبيب فى حماسة:

- «نعم.. هذه هى رسالة الإنسان العاقل.. أن يحيل المستنقعات إلى بساتين..».

اغرورقت عيناها بالدموع، وأخذت تفرك يديها فى عصبية، ثم قالت ساهمة:

- «فى بيتنا مستنقع عميق.. ولا يرغب أحد فى ردمه، وأمى وعشيقها كل يوم يحاولان تعميقه.. هذا المستنقع يكفى لأن تسقط فيه مدينة بأكملها..».

ربّت الطبيب على رأسها فى حنان، وقال:

- «لا تبالغى . . بالفهم والتفكير الرزين نستطيع أن نجد حلاً لكل عقدة . . ».

قالت فى انزعاج :

- «ألا تصدقنى؟!».

- «تعرفين يا رشيدة أننى أصدقك، ولكنى لا أوافقك على التمادى فى اليأس والتشاؤم . . ».

همست فى حيرة :

- «على الرغم منى . . ليتنى أستطيع أن أتخلص من هذه الأحزان . . ».

قال الطبيب مؤكداً :

- «إذا كانت لديك الرغبة الحقيقية فستنجحين . . ».

أخذت تدق رأسها فى عصبية، وتقول :

- «لكن كيف؟! كيف؟! يجب أن يتغير كل شىء فى منزلنا حتى أتفاءل . . أمى هى أمى وماهر هو ماهر . . وأبى المخدوع يذهب صباحًا ويعود متأخرًا فى المساء . . هذا بالإضافة إلى أسفاره الكثيرة . . لقد نسينى ونسى الطفلين . . ».

وأردف الطبيب :

«ونسى أمك أيضًا . . » .

صـمـتت برهة، ثـم سـددت إلى الطبـيب نظرات ذات مـعنى وقالت :

- ماذا تريد أن تقول صراحة؟! أتلتمس لها المعاذير؟!

استأذن الطبيب لبعض أمره، وترك رشيدة وحدها، لم يستطع الطبيب أن يبعد عن ذهنه هذه القضية الشائكة، إنه يعلم تمام العلم أن العـلاج الذى يداوم على إعطائه لرشـيـدة لن يأتى بالنتـيـجـة المرجـوة؛ لأن العنصـر الأسـاسى فى العـلاج هو القـضـاء على المسبب . . والسبب كامن فى البيت . . فى أمها وماهر وأبيها . . وهو حائر . . ماذا يفعل؟! هل يقتحم أسوار ذلك البيت ليعرف ما وراءها من أسرار؟ وبأى حق يفعل ذلك ؟! لقد أصبح أشد شوقًا لمعرفة الحقيقة أكثر من أى وقت مضى . . إنه لم يقدم على أمر كهذا من قبل . . كان يكتفى بتوضيح الحقيقة لأهل المريض، ويقدم ما يراه مناسبًا من إرشادات ونصائح . . وتنتـهى مـهـمتـه عند هذا الحد . .

وأخيرًا قرر الطبيب أمرًا لا رجعة فيه . . لقد اتخذ سمته صوب شركة «عبد العال»، ثم مضى بخطوات ثابتة إلى مكتبه . . وقدم نفسه لرجل الأعمال الكبير . .

رحب به الرجل، وقال :

- «أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك؟!».

أدرك الطبيب أن الأب لا يعرفه، وليس لديه أدنى فكرة عن أنه هو الذى يعالج ابنته.. لذا قال:

- «إن رشيدة تتحسن..».

ابتسم الرجل فى امتعاض، وقال:

- «إذن فأنت الذى...».

- «نعم يا سيدى..».

- «تريد الحساب بالطبع.. أنا أعرف أن الإقامة داخل المستشفى تكلف كثيراً.. حسناً.. لسوف أكتب للمحاسب كى يدفع لك ما تريد..».

وتناول عبد العال قلماً وورقة وبدأ يكتب...

لكن الطبيب أمسك بيده فى ود قائلاً:

- «ليس الآن.. ما جئت لأخذ الحساب..».

قال عبد العال فى دهشة:

- «لماذا جئت إذن؟!».

- «للتفاهم يا سيد عبد العال بخصوص صحة ابنتك..».

رد قائلاً:

- «وهذا أمـر يخـصك أنـت. . كل المطلوب منا تهـيـئـة المال المطلوب، والطبيب المناسب. . وأنت فيك الكفاية. .».

قال الطبيب بحزم:

- «ليس هذا هو المطلوب. .»

بدت الدهشة على وجه عبد العال. . لكنه سرعان ما قال:

- «أنت جهة الاختصاص. .».

رد الطبيب:

- «وأنت أيضًا. .».

قهقه عبد العال:

- «لم أتعلم طبًا ولا جراحة. .».

وقف الطبيب، وقال بهدوء:

- «ماذا تعرف عن ابنتك؟!».

قال دون اكتراث:

- «أعـرف أنهـا فـاسـدة مـدللة. . وأنهـا قـد أصيـبت بمس من الجن. . أم أن الأطباء لا يؤمنون بالجن الذين ورد ذكرهم فى كتاب الله؟!».

ابتسم الطبيب قائلاً:

- «إننى أؤمن بالله وكتابه ورسوله . . لكن ما أريد قوله هو أنك لا تعرف ابنتك جيداً . . » .

امتقع وجه عبد العال :

- «ما معنى ذلك يا دكتور؟!» .

- «المعنى واضح يا سيدى . . » .

أخذ عبد العال ينقر على الطاولة التى أمامه بقلمه الذهبى الجاف، وتمتم :

- «أخشى أن تكون قد صدقت ترهاتها . . هذا ما كنت أخشاه . . ولذلك فكرت ذات يوم فى أن أقيدها بالسلاسل والأغلال، وأقذف بها فى غرفة منعزلة، ونقدم لها الطعام والشراب حتى تشفى . . أو تموت . . إنها تسيء لسمعتى بصورة مؤسفة للغاية . . كيف تصدق كلام مجنونة؟؟» وأصبح من الجلى أن الرجل قد توترت أعصابه، وأنه يكره الخوض فى هذا الموضوع، وأنه يؤمن بأن ابنته مريضة وهذا أمر بين يدى الطبيب . . .

هز الطبيب رأسه قائلاً :

-«ما جئت لكى أبحث عن الإدانة أو البراءة . . » .

- «لماذا جئت إذن؟!» .

- «لأنه كان من الواجب أن آتى . . » .

- «لم تجب على سؤالى . .» .

- «لقد أجبت . .» .

- «لا أفهم . .» .

- «ابنتك يا سيدى كائن حى . . . لها قلب ومشاعر وفكر . . وفى حاجة إلى حبك . . وثقتك . . وعطفك . . وليس الحنان هو أن تعطيها كل ما تريد من مال ، وتكدس لها الثروة والذهب . . الحنان شىء غير هذا كله . . إنه كلمة حلوة . . لمسة رحيمة . . ابتسامة رقيقة . . جلسة سعيدة . . قبلة أبوية نابضة بأغنى المشاعر . . حديث ودى . . تفاهم . .»

اضطجع عبد العال على مقعده ، ودقق النظر فى وجه الطبيب ، ثم عاد وانحنى إلى الإمام ، وقال متصنعًا الحكمة والتعقل :

- «عندما يعجز الأطباء عن العلاج يهربون إلى ترديد كلمات لا معنى لها . .» .

قال الطبيب :

- «أعرف أن مثل هذه الكلمات لا وجود لها فى قواميس التجارة . . لكنها أساس الأسرة والعلاقات الإنسانية . .» .

هب عبد العال واقفًا ، وقال :

- «أجئت تهيننى فى مكتبى؟؟» .

وقف الطبيب، وانحنى فى أدب:

- «آسف ياسيدى، لم أقصد ذلك. . كل ما أريده هو أن نتعاون معًا فى علاج رشيدة. . ».

وانصرف معجلاً دون أن يعطى عبد العال فرصة لمزيد من التعليقات اللاذعة. . كان الطبيب موقنًا أن الأب سوف ينسى الأمر كلية بعد لحظات؛ لأن المنتظرين بالباب كثيرون، والمعاملات التجارية، والملفات المختلفة لن تترك له فرصة لإعادة التفكير فى قضية إنسان. . قضية ابنته. . حينما عاد الطبيب إلى عيادته. . وجد رشيدة تنتظر على أحرّ من الجمر وفى يدها دفتر أنيق مجلد تجليدًا فاخرًا. .

قال: - «ما هذا؟؟».

قالت فى خجل- «مذكراتى. . . ».

وسلمتها له طالبة منه أن يقرأها بإمعان، وأن يحتفظ «بسرية المعلومات» التى فيها، وأن يردها إليها فى أسرع وقت ممكن. . شعر الطبيب بارتياح كبير وهو يتسلم هذه الأوراق، إنها سوف تساعده كثيرًا فى فهم الحالة. . الأمر الذى يفكر فيه الطبيب كثيرًا هو: لماذا يميل إلى تصديق رشيدة؟؟ هذا تصرف لا يقوم على أساس منطقى أو علمى، لا يصح أن يكون للعواطف دخل فى حالات مرضية كتلك. .

حينما انفرد الطبيب بنفسه فى غرفة نومه، وقرأ السطور الأولى من أوراق رشيدة، وجد نفسه مندفعًا بقوة لتكملتها.. كانت كلماتها بسيطة معبرة، برغم ما فيها من أخطاء لغوية أو نحوية، وبرغم عدم استقامة التعبير فى بعض الأحيان.. هذا لا يهم الآن.. المهم الحقائق الخطيرة التى سجلتها الفتاة فى براءة وصدق.. كانت كلماتها موشحة بالحزن، مبللة بالدموع..

وأخذ يقرأ فى بعض الصفحات:

«.. أفقت من نومى فى الصباح مذعورة.. ماذا جرى لى بالأمس؟؟ ولماذا نمت هذا النوم العميق الذى لم أنمه من قبل.. آه تذكرت.. كنا نتناول طعام العشاء أنا وأمى وماهر.. كنت أشعر بصداع شديد.. لاحظت أن أمى وماهر يتبادلان نظرات لها معنى.. نظرات احمرّ لها وجهى خجلاً.. كانت أمى متلهفة غير مستقرة.. شممت رائحة الإثم.. رائحة الخمر كانت تفوح من فم الملعونة.. وأبى كان قد سافر إلى فرنسا منذ يومين.. فى وجه أمى نداء من نوع غريب وقح.. وكلماتها وكلماته تحمل أكثر من معنى.. أنا لست صغيرة.. أحضرت لى أمى كأسًا من عصير الليمون وأذابت فيه قرصين من الدواء.. طلبت منى أن أشرب حتى تخفف وطأة الصداع.. شربت.. وسرعان ما نمت.. وكالأحلام شعرت أن ماهر يحملنى إلى سريرى.. خيل إلىّ أنه

يقبلني . . لعل الأمر كان مجرد «تهيؤات» . . حاولت أفتح عيني عندما قبلني، فلم أستطع إلا قليلاً . . بدت أمي من خلفه تلبس قميصًا للنوم شفافًا ورديًا . . أحاطها بذراعيه . . وأطفأ النور . . اختلط الحلم بالحقيقة . . حاولت مرارًا أن أتكلم . . أو أنهض . . كنت عاجزة تمامًا . . وغير واعية لما يحدث . . .

أمي تصر دائمًا على أن تضع لي الدواء قبل النوم . . حاولت أن أمتنع مرة . . أقول الحقيقة لم أستطع النوم . . لازمني الأرق حتى الصباح . . كان الصداع يكاد يحطم رأسي ولاحظت أن أمي بدت حانقة غاضبة . . التوتر يسود تحركاتها وكلماتها . . لم أستطع الذهاب إلى المدرسة . . تساءل أبي عندئذ عما جرى، أخبرته أمي أنني أرفض تعاطي العلاج . . هرعت إلىَّ أمي طالبة الدواء حتى لا ينفجر رأسي . . رفضت بشدة . . وقالت إن هذا ليس وقته ويجب أن نلتزم بإرشادات الطبيب . . لم يعلق أبي كثيرًا على الأمر، قال عبارة موجزة:

«ماذا نفعل لك غير ذلك يا رشيدة . . أخذناك إلى الطبيب . . واشترينا لك الدواء أنت حرة . . ».

وفي مكان آخر من المذكرات كتبت رشيدة تقول:

«هذا اليوم لن أنساه طول حياتي . . إن الله هو الذي أراد ذلك . . كنا يوم جمعة . . وأعدت لنا المدرسة رحلة إلى منطقة

ساحلية جميلة بإشراف الإخصائية الاجتماعية. . قمت من نومى متأخرة بعض الوقت. . أسرعت بارتداء ملابسى. . كانت أمى تساعدنى وتتعجلنى حتى لاتفوتنى السيارات. . وأعددت عددًا من الشطائر والفطائر على عجل. . وعند خروجى سمعت أمى تتكلم فى التليفون بصوت هامس. . كانت تضحك ضحكات متكسرة خليعة برغم أنها خفيضة. . وخيل إلىّ أنى سمعت اسم ماهر. . دخل الشك فى قلبى. . وخاصة أن أبى كان مسافرًا أيضًا هذه المرة. . ومع ذلك جريت صوب الباب وأنا أبعث لأمى بتحية الصباح. .

وسمعتها تقول لى، والتليفون ما زال فى يدها: «مع السلامة يا حبيبتى. .»، وعندما وصلت إلى المدرسة، وقفت بالباب لحظة. . كانت سيارات الرحلة ما زالت واقفة. . وطالبات يهرعن إليها. . والإخصائية مشغولة بقوائم الطالبات تقرأ الأسماء لتتأكد من الحاضرات والغائبات. . وفجأة خطر لى خاطر شيطانى. . يا إلهى!! كيف أفعل ذلك؟؟ لكن قوة قاهرة دفعتنى دفعًا لأن أبتعد عن المدرسة. . لقد قررت عدم الذهاب إلى الرحلة. . وطنّ فى رأسى قرار حاسم ارتجف له كيانى. . دق قلبى فى ذعر. . جف حلقى. . كنت أريد أن أعرف. . جهلى بالحقيقة يمزقنى. . أنا على استعداد أن أدفع أى شيء لأعرف الحقيقة. . وأخذت أتلكأ هنا وهناك. . وفى

الوقت الذى رأيته مناسبًا اتخذت طريقى صوب البيت . . كان قد مضى علىّ منذ غادرت البيت ما يقرب من ثلاث ساعات . . لم أدق الجرس . . وقفت مسمرة أمام البيت . . فقد لمحت سيارة ماهر بالخارج . . ورأيت أحد الخدم يفتح الباب ويخرج . . وعندما رآنى بهت لأول وهلة . . وابتسم فى ارتباك . . قلت :

- «أليست هذه سيارة ماهر؟؟» .

قال الرجل :

- «جاء ليحضر بعض الطلبات لأمك . . كالعادة . . » .

دخلت مسرعة ، لكن الخادم حاول أن يشغلنى ببعض الأحاديث التافهة ، لم ألتفت إليه . . خلعت حذائى . . وسرت على أطراف أصابعى . . وقصدت لتوى إلى غرفة نوم أمى . . أعنى غرفة أبى . . حاولت أن أفتحتها بهدوء . . لم أستطع . . نظرت من ثقب الباب . . كان الشيطان مع أمى فى وضع شائن . . دارت بى الأرض . . لكننى سرعان ما تماسكت . . درت من الخلف . . لحسن الحظ . . أو لسوء الحظ . . كانت النافذة التى تطل على الحديقة مفتوحة . . نحيت الستارة جانبًا فُوجئا بوجهى يطل عليهم . . لا شك أنهما قرآ كل شيء على ملامحى . . أخذت أصرخ وأبكى . . حملونى إلى الداخل . . ماذا جرى لى بعد ذلك؟؟ لا أعرف . . سقونى شرابًا . . غرزوا فى لحمى عددًا من الإبر . . بقيت يومين لا

أستطيع النهوض . . أخذونى إلى طبيب . . قالوا بعد ذلك : إن الطبيب قرر أن حالتى النفسية خطيرة ، وإنى بحاجة ماسة للسفر إلى الخارج . . وفعلاً سافرت إلى الخارج . . الكارثة الكبرى أن الذى رافقنى فى رحلة العلاج هو ماهر . . وبعد يومين لحقت به أمى . . كنا فى لندن . . وفى المستشفى الذى عولجت فيه كنت أتخيل كل شىء . . أمى ومعها الشيطان . . فى أرض بعيدة عن الوطن . . وكانت أمى تثنى ثناء عاطرًا على الخدمات التى يقدمها ماهر لنا . . إنه يتقن الإنجليزية . . ويسهر على راحتنا . . حاولت أن تدخل فى روعى أن ما شاهدته ليس إلا تخيلات وأوهام . . لم أكن أستطيع التركيز فى تلك الفترة . . فالجلسات الكهربائية على دماغى . . والعقاقير المنومة ، والجلسات الطويلة مع طبيب لا يفهم لغتى جيدًا ، ولا أكاد أفهم لغته . . وأحيانًا يأتى ماهر ليقوم بدور المترجم . . عدت من رحلتى العلاجية أسوأ مما كنت . .

كنت فى حيرة من أمرى . . هل أقول لأبى الحقيقة؟؟ وماذا سيكون وقعها عليه؟؟ هل سيطلق أمى . . هل سيقتلها ويرمى بها للكلاب؟؟ لم أكن فى حالة تسمح لى باتخاذ قرار سليم . . حتى صديقاتى لم أستطع أن أبوح لإحداهن بالأمر . .

وكلما مرت الأيام زاد الخداع ، وتشعبت الخيانة . . والصمت لا يمكن أن يستمر إلى الأبد وإلا ضعت . . يا ربى . . خذ . . بيدى . .

أنا عاجزة حائرة مقهورة . . كتبت لمجلة نسائية تصدر فى مدينتنا . . أبرزت لها المشكلة بحذافيرها . . كانت ترد على باب الأسئلة أستاذة عريقة لها ماض طويل فى الأدب والعمل الاجتماعى ، ومعروفة جيداً فى الأوساط الفكرية العربية . . وكان ردها بإيجاز أنه لا بد أن أخبر أبى بالحقيقة . . وفعلت . .

وكم كانت دهشتى عندما استقبلنى أبى ببرود غريب . . وأخذ يبتسم فى إشفاق . . «لا عليك يا ابنتى . . سوف نحاول جاهدين فى تحقيق الشفاء لك . . ولن أبخل عليك بمال . . وسوف أرسلك هذه المرة إلى مصحة عالمية شهيرة» . . أخذت ألطم وجهى . . وأشد شعرى . . وأصرخ . . وأصرخ بلا فائدة . . لقد تركنى وخرج ، بعد أن أعطانى جرعة من الدواء المهدئ للأعصاب . . » .

وأخذ الطبيب يقرأ صفحات تلو صفحات . . وفى مكان آخر من مذكرات رشيدة قرأ الآتى :

- «إنه شاب رقيق وديع . . فى عينيه صفاء غريب . . الأول دائمًا على فصله . . ممدوح . . اسمه ممدوح . . شقيق زميلتى «حمدية» . . يخيل إلىّ أننى أحبه . . ولكنه منصرف عنى بمذاكراته . . يريد أن ينال مجموعًا كبيراً كى يدخل كلية الطب . . ومع ذلك فهو ينتبه إلىّ جيداً عندما أكلمه . . ويشرح لى أى موضوع علمى أسأله فيه . . تنميت أن أكون معه على انفراد . . وأن

أشرح له مأساتي . . لكنى لم أجد الشجاعة الكافية لكى أحدد معه موعدًا . . أقف دائمًا على الحافة . . لا يمكنني أن أخطو الخطوة الحاسمة إلا فى وقت متأخر . . حتى أبى لم أخبره بالحقيقة إلا بعد أن بعثت برسالتى إلى المجلة . . حلمت مرارًا أن ممدوح أتى كفارس الأحلام . . وانتشلنى من أحزانى . . وعاش معى فى جزيرة نائية وسط الزهور . . والعصافير . . والفواكه . . شيء كالجنة التى يطمع فيها الموعودون . . لكن يا إلهى . . إن أمرًا رهيبًا قد حدث . . لقد وجدت ذات يوم ازوراراً عنى فى بيت ممدوح . . وجدتهم يتهربون منى . . ابنتهم تعتذر عن زيارتى بحجة انهماكها فى العمل . . ورفضت «حمدية» أن تزورنى فى بيتى . . لم أكن غبية . . إن مرضى جعل بعض زميلاتى يتهربن منى . . وسمعة أمى- وهذا هو الأهم- جعلتهن يحجمن عن مصاحبتى . . إن كل شىء جميل فى حياتى يتدمر . . الآمال الحلوة تذوى . . الجنة الموعودة التى كنت أحلم بها فى الجزيرة النائية ومعى ممدوح، أكذوبة كبرى . . هراء . . كل شىء هراء . . لقد تحطم قلبى . . تحطم بلا رحمة . . وداعًا لحبك يا ممدوح . . أنا لا أستحقك . . لأنى أعيش فى مستنقع . . وأنت طاهر نظيف . . تصلى الفجر وتحرص على أداء الفروض فى وقتها . . وأمك حجت بيت الله الحرام، وتتزيًا بالزى الشرعى . . وأبوك رجل طيب متوسط الحال . . لكن هامته فى السماء . . وسمعته الطيبة على ألسنة الناس . . وبيتنا- على النقيض تمامًا من

بيتكم . . نحن نعيش فى غيبوبة آثمة . . حتى الخدم والحشم يتواطئون مع المجرم . . ويحرسون وكر الخطيئة . . ويبتلعون آثام الشيطان ما داموا يقبضون الثمن . . كل شيء أصبح يباع ويشترى حتى الضمير . . والروايات التى أشاهدها فى السينما والتلفزيون تخدعنا جميعًا . . وقلما تصدق فى وصف الحقيقة . . العالم غش وخداع . . » .

فى صفحات أخرى قرأ الطبيب :

« . . . يبدو أن أبى ارتاح لرحيل ماهر إلى شقة بعيدة وظن أن هذا هو نهاية المطاف لشائعات . . لكنه نسى أن أمى تستطيع أن تذهب إليه بنفسها . . السقوط لا نهاية له . . وللشيطان ألف حيلة وحيلة . . لكن ماذا يكون الشيطان؟؟ أهو شخص محدد معين بذاته . . أم أنه مجموعة صفات تركزت فى مخلوق ما؟؟ هل يوسوس للناس أم يتبلسهم؟؟ إننى أرى كثيرًا من الأبالسة على وجه الأرض . . ناظرة المدرسة أكرهها . . إنها تضربنى . . تقول لى دائمًا «بلاش دلع» مع أن الصداع يكاد يحطم رأسى . . ولا أفهم كلمة واحدة من شرح المدرسة . .

هربت من المدرسة ذات يوم لأمر مهم . . ركبت تاكسى إلى منزل ماهر . . تواريت فى مكان أمين . . كنت أترقب مجيء أمى . . وعدت بعد الظهر دون أن أعثر على دليل . . وكررت

المحاولة ثلاث مرات متتالية . . وفى اليوم الثالث صدق ظنى السيئ . . جاءت أمى فى سيارتنا الفارهة . . ونزلت منها ودخلت عمارة عالية . . دققت النظر فى رقم السيارة . . وحملقت فى وجه السائق . . السيارة سيارتنا . . والسائق سائقنا . . أنا لا أحلم . . هأنا فى الشارع . . والناس يروحون ويجيئون . . إننى أصعد السلم . . أقف أمام شقة ماهر . . أظل مسمرة لبضع دقائق . . أدق الجرس . . ها هو يفتح لى . . إنه يلبس سروالاً قصيراً . . ونصفه الأعلى عارٍ تمامًا . . ويتطوح من أثر السكر . . صرخت فى وجهه :

- «أين أمى ؟؟» .

الحقيقة أننى كنت قد أخفيت خنجراً بين طيات ملابسى . . جذبنى إلى الداخل . . جريت فى أنحاء الشقة كالمجنونة . . كنت أفتح الأبواب فى عنف . . وجدتها جالسة وفى يدها كأس وسيجارة . . كانت بقميص النوم الخفيف الحريرى . . .

هتفت :

- «ماذا تفعلين هنا؟؟» .

قالت فى استهتار :

- «لماذا هربت من المدرسة؟؟» .

قلت :

- «هل هذه هلوسة أم حقيقة؟؟».

وانتزعت خنجرى من بين طيات ملابسى . . وهممت بأن أقذف بنفسى عليها . . لكنه كان ورائى . . أمسكنى ماهر، ولوى ذراعى . . وانتزع الخنجر منى . . ثم غرز الإبر فى جسدى . . وشعرت بوعيى يغيب . . ولم أفق إلا وأنا ملقاة على سريرى فى منزلنا . . كان أبى يقف مكفهر الوجه . . وأمى تمضغ العلك . . وهمس :

- «كيف حالك يا رشيدة؟ . .».

قلت وأنا أنتحب :

- «أريد أن أموت . .».

قال فى براءة محزنة :

- «هذا كلام يغضب الله . .».

احتضنت أبى، مرغت دموعى على صدره، كنت أقول :

- «أبى . . إنى أحبك . . من أجلك أفعل أى شىء . . لكن صدقنى يا أبى . . أنا لست مجنونة . .».

اغرورقت عيناه بالدموع . . أخفى وجهه عنى، وهمس بصوت راعش :

- «عندى مواعيد مهمة . . » .

طوى الطبيب المذكرات ، إن فيها كلامًا كثيرًا ، وخواطر عديدة ، وأبياتًا من الشعر الحزين المكسور الوزن . . الضباب يغلف كل شىء . . أى عالم ذلك الذى تعيش فيه تلك الفتاة . . أحيانًا تكون بعض الأمراض النفسية أعتى وأصعب من بعض أنواع الأورام الخبيثة . . لا شك أن للنفوس سرطانًا كما للأعضاء . .

وكلما تعمق الطبيب فى فهم رشيدة كلما ازداد إشفاقًا عليها ، وإحساسًا أقوى بنكبتها . . وشغلته هذه الفتاة كما لم تشغله مريضة من قبل ، كان يتردد عليها كلما وجد لديه فراغًا ، وكان يقصدها عندما يعلم أنها تعانى من نوبة من نوبات البكاء أو الهياج . . وكان يتأكد من أنها نائمة أثناء الليل . . ولاحظ أن الأم لم تعد تأتى لزيارة ابنتها . . لقد أسعده ذلك بعض الشىء ؛ لأن مجرد ذكر اسم الأم كان يثير رشيدة أو يوتر أعصابها ، وذات مساء وثب إلى ذهن الطبيب سؤال . . .

هل من حقه أن يتحرى هذه الحقيقة؟؟ هل له أن يبحث عن سلوك أم رشيدة وماهر؟؟ إن الأمر بعيد عن مجال تخصصه ، وهو ليس جهة قضائية أو تنفيذية ، إنه مجرد طبيب . . لكن . ألا يختلف الأمر إذا كان يتعلق بمصير إنسانة تعسة مظلومة؟؟

لم يستطع الطبيب أن يقاوم رغبته الجامحة فى تقصى الحقائق . .

كان يشق طريقه إلى بيت ماهر . . لم يتزعزع هذه المرة أو يتردد . . صمم أن يحاول الكشف عما غمض من القضية وأن يضع حداً لهذه المأساة المستمرة . . لقد عرف من رشيدة العنوان والطريق . .

المدينة واسعة كبيرة، والمئات يروحون ويجيئون، والحافلات تغص بالراكبين والراكبات . . الأجساد متلاصقة والباعة يملئون الشوارع، والأصوات تعلو، والترام المتباطئ يدق أجراسه العالية . . والمتسولون على جانبي الطريق . . والطبيب لاه عن ذلك كله . . يتساءل . . ترى كم مريضًا نفسيًا فى هذا العالم الواسع؟؟ يبدو لناظريه أحيانًا أن المرض النفسى هو السمة العامة الغالبة، وإن قلة ضئيلة من الناس هم الأصحاء نفسيًا . . وأيضًا قليلون هم الذين يذهبون إلى الأطباء . . حتى الأطباء أنفسهم يعانون من بعض الاضطرابات النفسية . . إنه هو نفسه يعالج أربعة من زملائه الأطباء . . أحدهم جراح ناجح . . الثانى طبيب نساء وولادة . . والثالث شاب حديث التخرج . . والرابع . . نعم إنها طبيبة متزوجة من طبيب ولها ثلاثة أطفال . . كل واحد من الأربعة له عالمه الخاص . . إنه دائمًا يبحث فى الكتب . . ويقرأ أحدث الدراسات . . ومختلف مدارس العلاج النفسى . . حتى «سيجموند فرويد» أبو الطب النفسى هو الآخر يزعمون أنه كان يعانى من أزمات نفسية . . لماذا يشتط بعيدًا؟؟ إنه ذاهب لمقابلة

ماهر . . ترى أى إنسان ذلك الرجل ! ! إنه رآه ذات مرة . . عندما رآه ماهر عرفه على الفور . . لا يبدو عليه أية مظاهر غير عادية . . يتصرف ببرود غير عادى . . قال ماهر عندما رآه :

- «أهلاً بطبيبنا العزيز . . إنه لشرف كبير أن تزورنا فى هذا المكان المتواضع . . أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك؟؟» .

تماسك الطبيب لم يعد هناك مجال للتراجع . .

- «لاشك أن الأمر يخص رشيدة» .

قالها ماهر وهو يصب كأسًا من الويسكى ويقدمها للطبيب ، لكن الطبيب ، دفع الكأس برفق وقال :

- «أشكرك . . هذا هو الموضوع . . » .

- «لكنه لا يخصنى . . » .

- «أنت محل ثقة الجميع يا ماهر ، وتستطيع أن تساعدنا . . أدرك الرجل ما يعنيه الطبيب ، ولهذا قال :

- «لا تبالغ فأنا مجرد موظف عندهم ، ويمكنهم أن يرموا بى فى الشارع فى أية لحظة . . إنه مصيرى ومصائر أمثالى معلقة بخيط رفيع . . » .

سدد إليه الطبيب نظرات ثاقبة ، وقرر أن يهاجم .

- «أنت لست مجرد موظف يا ماهر» .

- «هكذا يزعم الحاقدون دائمًا . . أمثالنا عبيد . . نعم عبيد . . أتدرك مرارة هذه الكلمة؟؟» .

وشرب ماهر كأسًا . . ثم تطلع إلى الطبيب ، وقال :

- «باختصار ماذا تريد»؟

سادت فترة صمت . . تلاقت النظرات . . كان كل منهما يفهم الآخر . . وألقى الطبيب بالحقيقة دفعة واحدة :

- «أيها الرجل . . أريدك أن تقطع علاقاتك تمامًا بأم رشيدة» .

قهقه ماهر ، وقال :

- «هل صدقت هلوساتها أنت الآخر . . » .

أمسك الطبيب بيده وهدر :

- «لا تحاول أن تخدعني . . أنا على استعداد تام أن أسجل شهادة طبية باسمي تؤكد سلامة قواها العقلية . . وأن ما رأته لم يكن هلوسات . . » .

شرب ماهر كأسًا أخرى ، ثم تجشأ ، وقال :

- «إذًا فالأمر جاد . . » .

- «تمامًا لأنه يتعلق بمصير فتاة حاولت الانتحار . . والقاتل أنت . . » .

قال وقد ارتجفت أوصاله :

- «ولِمَ أنا بالذات؟؟ مسكين يا ماهر . . دائمًا مظلوم . . » .

قال الطبيب دون أن تطرف له عين :

- «وأمها أيضًا مسئولة . . » .

وقف ماهر وهو يمسح شاربه قائلاً :

- «لقد أفسدت عليّ متعتى . . لا ذنب لى فيما يجرى أنا أشترى وأبيع . . مثل الدول لا تحكم علاقاتها سوى المصلحة لا شيء اسمه المبادئ . . وأنا أيضًا أبيع المتعة وإلا . . أنت تعرف البقية . . هناك التعطل . . والشارع . . والجوع . . والخواء . . لا أستطيع أن أرفض طلبًا لولى نعمتى . . » .

قال الطبيب فى دهشة :

- «ولى نعمتك؟؟ مَنْ؟؟ عبد العال؟؟» .

قهقه ماهر وهو يصب كأسًا ثالثة ويقول :

- «أعنى زوجته . . » .

هتف الطبيب : - «إذن فأنت تعترف . . » .

قال ماهر : «نعم» . . وبكل بساطة . . فأنت لن تغدر بى ، ولن تشى بى لدى الزوج وإلا قتلته ودمرت العائلة بأسرها . . وستكون

أنت المسئول . . وهناك سؤال آخر . . من سيصدقك؟؟ دكتور . . انصرف عن هذا الأمر . . » .

قاسه الطبيب بنظراته ، وهتف فى غيظ :

- «إنسان أنت وعندك ضمير؟؟» .

ابتسم ماهر فى سخرية :

- «ألا تعترف بالحب؟؟» .

هدر الطبيب :

- «أى حب ذلك الذى تتحدث عنه . . لقد قلت منذ لحظة أنك تتعامل فى إطار المنفعة . . » .

- «لكنى أمارس العمل الذى أحبه . . » .

أمسك الطبيب فى كتفه ، وقال :

- «الإنسان المقهور المحتاج يعمل كالحمار . . الإنسان الذى فيه مات . . » .

قال الطبيب :

- «أغلب الناس من الفقراء والمحتاجين . . لكنهم يعملون بشرف وعفة . . » .

قال ماهر فى استهتار :

- «ولهذا فهم يعيشون فى الذل طول حياتهم. . ».

- «أنت مخطئ. . ».

- «تلك فلسفتى التى أؤمن بها. . أن أجمع أكبر قدر من المال والمتعة فى أقصر وقت ممكن. . لأن الغد لا أمان له، وأنا رجل طموح. . وأريد أن أعيش فى بحبوحة من العيش. . ».

رد الطبيب قائلاً:

- «بأى ثمن؟؟».

- «نعم بأى ثمن. . ».

- «أيها الوغد القذر. . ».

أشاح ماهر بيده قائلاً:

- «إنك تضع نفسك تحت طائلة العقاب، فهناك قانون السب العلنى، وقذف المحصنات من النساء. . وليس فى يدك أى دليل ضدنا. . ».

قال الطبيب:

- «وأنت تشرع فى قتل فتاة بريئة. . ».

- «قل ذلك لأمها يا دكتور. . ».

ساد الصمت المشحون بالتوتر، كان الأمر مثيراً غاية الإثارة، لم

يشعر الطبيب طوال حياته بضيق كذلك الضيق الذى يعانى منه الآن . . لو استطاع أن ينقض على عنق ماهر ويعتصره بيديه حتى تزهق أنفاسه لفعل، لكنه أمام حالة مرضية من نوع آخر . . بينما كان الطبيب غارقًا فى تصوراته الخانقة سمع ماهر يقول :

- «أنت تجرب الجوع . . لم تعرف كيف تكون نفسية الحمّالين فى روما . . ولا ماسحى الأحذية فى أثينا . . ولا مشاعر الخدم فى قصور بلجيكا . . ولا الذين يغسلون السيارات فى نيويورك . . لم تحاول أن تنام فى الحدائق العامة والبرد القارص ينفذ إلى عظامك . . أنت لم تتعلم الحقد . . لقد تعلمت فلسفتى من شوارع العالم . . كلهم أنانيون . . » .

وفجأة التفت إلى الطبيب، وقال :

- «ماذا تريد منى؟؟» .

- «أن تترك المرأة . . » .

- «وما هو الثمن؟ . » .

- «عند الله . . » .

قهقه ماهر فى جرأة، وقال :

- «والله لا يحتاج إلى وساطتك . . دعنى واذهب . . » .

قال الطبيب :

- «لقد أكثرت من الشرب . . » .

وانفجر ماهر باكيًا . .

الطبيب يعرف أن المشروبات الكحولية فى مرحلة من المراحل قد تؤدى إلى مثل ذلك التصرف . . وانسحب الطبيب فى هدوء . . وخرج إلى الشارع . . وقبل أن يخرج قال لماهر :

- «إن أمثالك يدفعون الثمن غاليًا فى النهاية . . هذه الفلسفة المريضة لن توصلك إلى السعادة التى تتوهمها . . » .

•••

مضى الطبيب فى طريقه كالتائه . . لا يمكن أن يكون العالم على هذا النحو من الفساد والأنانية . . رشيدة ليست رشيدة . . إنها عالم مريض . . إنها أعراض لانحراف هائل . . ماذا جرى للدنيا . . فى قريته الصغيرة القابعة على نهر صغير لم يكن الناس على هذه الصورة من الدمار . . هو لا ينكر أن القرية ليست كلها طهرًا وعفافًا . . القرية تضم إلى صدرها الحنون ، الصالحين والطالحين . . وفيها الخطأ والصواب . . وفيها الجريمة ، وفيها العمل الطيب . . لكن المدينة هنا قلبها من حجر . . والخطايا تترعرع فى ظل فلسفات غريبة ، وعقائد مريضة . . غابات الوحوش أخف وطأة من المدن وقسوتها . . إن أنسب مكان لإقامة المصحات النفسية يجب أن يكون بعيدًا عن المدن . . يجب أن يبنى إلى جوار الأنهار والأرض

الخضراء والفلاحين البسطاء . . يا إلهى إن كل إنسان فى هذا الوجود العريض يرتكب الحماقات والجرائم ويلتمس لنفسه المعاذير، إنه يفلسفها ويعرضها عرضًا منطقيًا . . حتى لتبدو وكأنها شيء طبيعى لا انحراف فيه . . إنها جاهلية من نوع فاجر . .

كان العرق يتصبب على جبينه . . ورأسه ساخن يكاد يتفجر . . والسماء سوداء قاتمة . . والأضواء الكهربائية الملونة تتوالى فى جنون معلنة من المحلات التجارية وأنواع البضائع المختلفة . . وانطلق صوت مكبر للصوت يؤذن للعشاء . . ووجدت الطبيب نفسه يدلف إلى داخل المسجد القريب . . خلع سترته . . وتوضأ شعر بأن الماء البارد يهدئ من ثورته وتوتره . . وانخرط فى سلك المصلين . . شعر بأنه يقترب من الله أكثر . . ضوء المسجد خافت . . والإمام يردد بضع آيات من القرآن الكريم . . ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] كان يحلق مع الآيات فى آفاق عليا . . وادعة . . تشع باليقين والأمل والرجاء . . المؤمن إذن يتلقى العون من الله حتى ينجو من الخوف والحزن هم أهم سمتين يشاهدهما فى الأمراض النفسية . . والعلاج واضح هنا . . لماذا لم يدرس ذلك من قبل؟؟

وخرج من الصلاة وهو أفضل كثيراً عن ذى قبل . . لقد شعر براحة كبرى . . توارى اليأس والضيق . . وعندما دخل على رشيدة . . وجدها تنتظر على أحرّ من الجمر . . قالت : «أين كنتَ؟؟» قال : «كنت أبحث لك عن علاج جديد . . وقد وجدته . . » بدا على وجهها الفرح ، وقالت :

- «يبدو أنك نسيت أن تحضر لى أيضًا كتابًا جديدًا» . . وابتسم . . ثم فتح حقيبته . . وأخرج لها مصحفًا . .

وظل الطبيب طوال عدة أيام حائراً ، يقلب الأمر على مختلف أوجهه ، إن الأمراض النفسية عمل صعب إذا أخذَ مأخذ الجد ، تتداخل فيه أمور عدة اجتماعية وشخصية وعاطَفية . . كالحقل الممتلئ بالأشواك . . التهاب الزائدة الدودية مثلاً مرض جراحى يمكن تشخيصه بسهولة ، وإجراء الفحوص اللازمة فى أقصر وقت ، ثم إجراء الجراحة فى دقائق ، وينتهى الأمر . . والطبيب هنا أمام مشكلة رشيدة . . وأم رشيدة . . ووالد رشيدة وماهر ، واعتبارات مختلفة تتداخل وتتشابك . . العقاقير والصدمات الكهربائية لم تحل المشكلة . .

ومع ذلك فإن اقتلاع رشيدة من البيئة الفاسدة ، وتمكن الطبيب من ملء فراغها بأشياء جديدة كالكتابة والقراءة ، ووقوفه إلى جوارها أطول فترة ممكنة ، كل ذلك جعله يصل بها إلى قدر من الثقة والتحسن . . وقرر الطبيب أن يبدأ معها هى على أسس واضحة . .

جاءها الطبيب ذات يوم، ثم أخذها من حجرتها، ومضى خارج المستشفى فى مكان بعيد. . كان محرجًا بعض الشيء وهو يسير بها فى سيارته الخاصة. . لكن الهدف الأسمى هو أن يعمل شيئًا ذا جدوى. .

قال لرشيدة:

- «لقد صدقت كل كلامك لى. .».

قالت فى سعادة:

- «أنت أول إنسان يفعل ذلك. .».

ابتسم فى رضى، وقال:

- «ألا تثقين فىّ؟؟».

- «كل الثقة يا دكتور. . وأنا طوع أمرك. .».

أوقف الطبيب السيارة، ثم سارا مشيًا على الأقدام إلى كازينو قريب اسمه كازينو «الحمام»، وجلسا بعيدًا فى مكان منعزل على شاطئ النهر. . كان الجو جميلاً يوحى بالصفاء والرضى. . وهمس الطبيب:

- «أنت قادرة على حل مشكلتك. .».

نظرت فى دهشة:

- «من أنا حتى أفعل ذلك؟؟ لقد أقررت لك بعجزى التام، وليس أدل على فشلى من ذلك الاضطراب الذى أعانى منه . . ».

هز رأسه، وقال:

- «الإنسان ذو طاقات هائلة . . ولا يحتاج إلا إلى الثقة بنفسه، والإيمان بربه . . ومن ثم يستطيع أن يحقق نجاحات خرافية . . الذين صعدوا إلى القمر بشر مثلنا . . وجان دارك التى أنقذت فرنسا فتاة مثلك . . ماذا أقول؟؟ آلاف الأمثلة . . أنت فى محنة لكن المحنة ليس معناها الاستسلام أو الانتحار . . يجب أن نقهر الضعف فى أنفسنا قبل أن نقهره لدى الآخرين . . والفساد وضع شاذ لا يدوم . . أفيقى إلى نفسك . . ارفعى رأسك . . قفى صامدة فى وجه الأعاصير . . أنا لا أقدم لك نصائح جوفاء وأنا بعيد . . أنا إلى جوارك . . أشعر بكل آلامك . . وعندما تبدين فتاة سوية أمام الجميع، فسوف يخافك ماهر، وسوف تحسب أمك لك ألف حساب وحساب، وسوف يستمع إليك أبوك جيداً . . لن يقول أحد أنك مجنونة أو تهلوسين . . سيقولون رشيدة عاقلة . . دوسى على العقاقير المنومة بحذائك . . لا ترهبى الأرق فى البداية . . لن تكونى وحدك . . واذكرى ذلك الحديث القدسى العظيم . . عن رب العزة حيث يقول: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى.. من

أتانى ماشيًا أتيته إليه هرولة»، والكون ليس فوضى.. لكن كل شيء يسير فيه بحساب.. أمك مريضة.. وماهر مريض..».

صرخت رشيدة فى حدة:

- «ليسا مريضين لكنهما مجرمان..».

هز رأسه قائلاً:

- «تلك قضية تحتاج لبحث.. وحتى المجرم إنسان غير صحيح النفس والعقل».

قالت فى دهشة:

- «إذن لماذا بنوا السجون، ونصبوا المشانق؟؟».

- «السجون مثل الحجر الصحى الذى يعزل فيه الموبوءون حتى لا ينشروا جراثيمهم بين المجتمع.. وهى فى الوقت نفسه تأديب وتهذيب.. والمشانق قصاص ممن تعدوا على حق الحياة وشرفها».

شردت قليلاً ثم قالت:

- «لقد فعلا ذلك».

- «نحن الأطباء لا نصدر أحكامًا سريعة.. المحاكمات العاجلة ليست طريقنا.. أهم زاد للعلماء الصبر.. والدأب.. والأمل.. وفى الحقيقة أننى وضعت خطة معينة لإظهار الحق.. لكننا لن

نستطيع تنفيذ هذه الخطة إلا إذا كانت حالتك النفسية والجسدية تسمح لك بالعمل . . إنها خطة مثيرة للغاية» .

وأخذ يشرح لها خطوط العمل المقبل ودورها فيه ، وكم كانت دهشة الطبيب ، حينما رأى رشيدة تتحمس للفكرة ، إنها مغامرة . . ورشيدة تجذبها المغامرات وتلهب مشاعرها . . وبعد أيام قليلة خرجت رشيدة من المستشفى وهى فى حالة جيدة ، وبدأت تذهب إلى مدرستها ، ولم تعد تقبل الأدوية المنومة أو المخدرة . . وكانت تتردد على الطبيب من آن لآخر ، ووثقت علاقاتها مع أمها وأبيها ، كان هذا التغير مفاجأة للجميع . . ولم يستمر الاندهاش فترة طويلة ، فقد أدرك الجميع أن الطبيب نجح فى مهمته . . وهذا كل شىء . . وبدأت الأم تشعر بخوف غامض . . أصابها لون من الارتباك والعصبية . . أحيانًا كانت تبكى بلا سبب . . حتى أن عبد العال قال لها ذات يوم ساخرًا :

- «يبدو أن ابنتك رشيدة قد شفيت بعد أن انتقلت إليك عدوى مرضها . . لماذا لا تذهبين إلى الطبيب نفسه»؟!

صرخت فى حدة :

- «هل أنا مجنونة يا عبد العال؟؟» .

هز كتفيه فى ازدراء ، وقال :

- «إذن لماذا الحزن والبكاء؟؟ أنا لم أقل إنك مجنونة إن الرجل ماهر فعلاً فى شفاء تلك الحالات. . لأول مرة أجد رشيدة تعود من مستشفى وليس فى يدها عقاقير طبية. . أليس هذا أمرًا غريبًا».

وأخذت حالة الأم تسوء. .

لم يكن أحد يعرف السر إلا الطبيب ورشيدة. . لقد سافر ماهر فى مهمة تتعلق بالعمل إلى الخارج لمدة شهر. . وأخذت الأم تحاول التغلب على وحدتها وحرمانها بالوسائل الصناعية المختلفة. . كانت تشرب. . وكانت تحقن نفسها ببعض المطمئنات. . لكن ابنتها قالت لها ذات يوم:

- «لقد سمعت يا أمى أن المواد الكحولية والمهدئات العصبية معًا قد يؤديان إلى الموت. .».

أصيبت الأم بالذعر فى البداية، وصرخت: «لا أريد أن أموت. .»، ومع ذلك استمرت فى أسلوبها الخاطئ. .

وحينما عاد ماهر من سفره لاحظت رشيدة على أمها بعض الانتعاش الطارئ. . وفى هدوء اتصلت بالطبيب دون أن يلحظ ذلك أحد. . وكان طبيعيًا أن تهرول الأم إلى شقته. .

وعادت الأم فى المساء كابية حزينة. . كان الشحوب يكسو وجهها، وكانت يدها ترتعش وهى ممسكة بالسيجارة. . الهزيمة. .

نعم . . كل شىء على وجهها يوحى بهذا الشعور المدمر القاسى الرهيب . . لقد سقطت منهوكة القوى . . وبعد وقت قصير عاد الأب . . عندما رأته الأم جرت تجمع ملابسها وأشياءها الخاصة . . والدموع على خديها . . كان الأب يرصدها بنظرات يندلع منها الشرر . . وهدر :

- «كان ابنتى على حق . . وأنت أيتها الخائنة الغادرة لا تصلحين لأن تكونى أماً لأبنائى . . الخداع عمره قصير . . والخيانة ليس لها علاج سوى البتر . . سوف تخرجين إلى الشارع . . لقد تنكرت للثقة والحب . . وحطمت قداسة الأمومة . . وطهر الأسرة الفاضلة . . » .

وجاءت الأم ذليلة خاشعة . . وركعت تحت قدميه تقبل حذاءه ، وهى تردد :

- «ارحمنى . . لقد أخطأت . . وسأعيش لك ولأبنائى خادمة منذ اليوم» . .

- ركلها فى حسم ، وقال :

- «لقد فات الآوان» .

رفعت إليه نظرات دامعة وهى ملقاة على البساط الفاخر وهتفت فى ضراعة :

- «آخر مرة . . » .

نظر إلى رشيدة ، وكانت هى الأخرى تبكى :

- «هناك خطايا لا يستطيع الرجال أن ينسوها . . » .

قالت الأم :

- «أعرف . . » .

- «والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . . » .

- «أعرف . . » .

- «وسأطلقك لتتزوجى . . » .

أشاحت بيدها فى رعب :

- «مستحيل . . » .

- «الضائعات للضائعين . . وابدأ رحلة الضياع معًا» .

وانصرف أبى ، كان متوتر الأعصاب ، وإن بدا متظاهرًا بالهدوء . .

التفت الأب إلى رشيدة ، وقال :

- «السيارة فى انتظارك ، ستقضين الليلة فى بيت عمتك» .

قالت رشيدة :

- «كيف أتركك وأترك أمى وأنتما على هذه الحالة؟؟».

صرخ الأب فى عنف:

- «ليست أمك.. أمك ماتت.. وقد تزوجتها بعد أن خفت عليك.. وانتقلنا إلى حى جديد حتى لا يعرف أحد أنها زوجة أبيك.. تلك هى الحقيقة التى أخفيناها عنك يا رشيدة طوال هذه السنين.. من يظن أن هذه تصرفات أم؟؟ اذهبى على الفور ودعى الأمر لى..».

وذهبت..

كنت طوال الطريق أرتجف من الخوف، وعشرات التصورات ترهق خيالى، ماذا سيحدث؟؟ وما مصير الطفلين؟؟ وكيف لم أعرف الحقيقة طوال هذه السنين؟؟ ولماذا لا أذهب إلى الطبيب الآن.. لكنها أوامر أبى.. ولا بد من تنفيذها.. وفى بيت عمى الذى يعيش وزوجه التى لم تنجب أستطيع أن أتصل بالطبيب إننى فى أمس الحاجة إليه.. إن قلبى يشفق على هذه المرأة التى كنت أحسبها أمى.. روحى تتمزق من أجلها.. لماذا لا تكون مريضة كما زعم الطبيب ذات يوم؟؟ وهل فى الإمكان أن يغفر أبى لها؟؟ لو حدث لهذه المرأة شيء فسأكون أنا المسئولة مع الطبيب.. أنا التى دبرت مداهمتها وهى متلبسة بالجريمة مع ماهر.. يا إلهى ماذا أفعل؟ هذه بعض السطور التى سجلتها رشيدة فى مذكراتها..

لكنها لم تنم طوال ليلتها. . وأخذت رشيدة تكتب من جديد:
«وكيف بقيت دون أن أعرف تلك الحقيقة طوال هذه السنين؟؟ لماذا لم يخبرني أبي في البداية؟! إن الأمر بالنسبة لطفلة مثلي بسيط. . كان في الإمكان أن يخبروني أن أمي ماتت. . وأنها زوجة أبي ولن يحدث شيء. . لا أظن أن هناك ضرورة كانت تفرض هذا التصرف من أبي. . وما دام أبي كان يعرف أنها ليست أمي. . فلماذا كانت تلك الثقة الكبيرة التي أولاها إياها. . لدرجة أنه كان يكذبني دائمًا ويصدقها في كل كلمة تقولها. . إنه يعرف مشاعر مثل هؤلاء النسوة كما يعرفها جميع الناس. . فمعظم زوجات الآباء قد يحقدن على بنات وأولاد زوجها من امرأة سابقة. . هذا في حدود معلوماتي. . ومع ذلك يا إلهي. . إنني أشعر بالعطف عليها. . تلك هي الحقيقة. . قد أبدو غير منطقية في تصرفي هذا. . لكن تلك حقيقة مشاعري. . نعم إنها أخطأت أخطاء جسيمة. . عقوبتها الرجم حتى الموت حسبما علمتنا مدرسة الدين وهي تشرح لنا الحدود. . وشفقتي أكثر على أبي المخدوع. . إن الصدمة قاسية جدًا بالنسبة له. . لو حدث له شيء من جراء تلك الكارثة فستكون هي القاتلة. . . أكاد أرتجف وأنا أخوض في مثل تلك المخاوف. . . أبي لا يستحق ذلك العذاب كله. . . لقد أعطى الكثير ووثق بها، وهيأ لها كل سبل الراحة والنعيم. . . أعطاها ما لم تحلم بمثله فقط. . . هل يصل انحطاط النفوس لهذا المستوى؟؟

ولماذا؟؟ ما أكثر التساؤلات المضنية التى لا أجد لها جوابًا فى هذا العالم الغريب المحير؟؟ لقد كنت أنتظر اللحظة التى تسقط فيها هذه المرأة مدانة ومتلبسة بالإثم، وكنت أسعد بهذا الشعور . . . شعور الانتقام والشماتة والانتصار . . . حتى فى الوقت الذى كنت أحسبها أمى . . . لكننى الآن أتوه بين عواصف من الأهواء المتضاربة، والعواطف المتناقضة . . . لا أكاد أصدق ما حدث وما يحدث . . . . هل أنا فى حلم؟ . . هأنذا أهز رأسى . . . أهزها فى عنف . . . لعلى أفيق . . . لعل ما أعيشه مجرد كابوس من الكوابيس التى أرهقتنى طوال السنين الفائتة . . . لكن أعود مرة ثانية فأجده الواقع . . . المر . . . الأليم . . »

●●●

بقيت رشيدة فى بيت عمتها ثلاثة أيام . . . كانت فى قلق متزايد، لم تغادر البيت حسب أوامر أبيها، لكنها فى الواقع كانت تريد أن تطمئن عليه، لم يكن أمامها سوى أن تحادثه فى التليفون، لكن المكالمات التليفونية كانت موجزة لا تشبع فضولها، ولم تكن رشيدة تريد أن تثقل على أبيها . . وعرفت رشيدة أن زوجة أبيها غادرت البيت إلى الأبد بعد أن سوت مسألة حقوقها مع عبد العال، ولم يعد يراها أحد . . ولا يدرى أين ذهبت، كما علمت أن ماهر قد أنهيت خدماته على الفور . . . وفوجئت رشيدة بأبيها يأتى إليها

فى بيت عمتها. . كان شاحبًا مهرولاً، وآثار الأرق والإرهاق تبدو على عينيه، وسحائب الهموم تظلل ملامحه، وبدا أكبر من عمره الحقيقى. بكثير. . . ووقفت رشيدة خاشعة أمام أحزان الأب المطعون فى شرفه وكبريائه وثقته. . كانت رشيدة صغيرة. . لكنها كانت تدرك هول الموقف تمام الإدراك. . . لكنها لم تفتح فمها بكلمة. . . وبقيت واقفة مطأطئة الرأس. . .

وقال الأب:

- «أنت الآن يا رشيدة واعية وناضجة. . . لم تعودى صغيرة. . . . وفيك الكثير من أمانة أمك وإخلاصها وجمالها رحمها الله. . ».

انحدرت الدموع على خد رشيدة، ولم تستطع أن تكتم شهقاتها. . . وقف عبد العال وضمها إلى صدره فى حنان أبوى صادق، وقال:

- «لماذا تبكين يا حبيبتى؟؟ يعلم الله كم أحبك. . . ».

قالت من بين شهقاتها ودموعها:

- «بل أبكى من أجلك يا أبى. . . ومن أجل أمى التى لم أبكِ عليها من قبل. . . »

قال عبد العال بصوت مرتعش:

- «أمك لم تمت. . هكذا يخيل إلىّ وأنا أنظر إليك الآن. . ستقومين مقامها. . ستكونين فى بيتنا يا رشيدة الابنة والأم. . . . ستكونين بحق سيدة القصر الكبير. . . وأنا واثق أنك سوف تحققين النجاح الذى أحلم به. . . لم تعد لى أدنى رغبة فى الزواج. . . . وسيكون الطفلان أمانة فى عنقك. . وسوف أغير من نسق حياتى تغييراً شاملاً. . . لم يعد عملى فى حاجة إلى كل وقتى. . . إن لدىّ الخبرات المختلفة. . . . والضوابط التى تضمن حسن سير العمل، وسأكون مجرد مشرف ومتابع لأمهات الأمور. . . لقد تلقيت فى حياتى دروسًا كثيرة. . أعترف أننى أخطأت وأصبت، وفشلت ونجحت. . وهزمت وانتصرت. . . . وخاب ظنى فى رجال، وصدق ظنى فى آخرين. . . وأحيانًا كنت أعطى الثقة لمن لا يستحقها، ومرات أخرى تكون ثقتى فى محلها. . . . نحن بشر يا رشيدة. . . . ولسنا معصومين من الخطأ. . . والكمال لله وحده. . ».

وسادت فترة صمت، وأخذت رشيدة تجفف دموعها. . . لقد أدركت أنها إنسانة جديدة. . وأنها قادرة على حمل المسئولية الأسرية. . وثقة أبيها بها جعلتها تكبر وتكبر. . حتى لكأن سنوات مرت، على الرغم من أن هذا اللقاء لم يستغرق سوى بضع دقائق. . .

وأراد أبوها أن يبدد جو الكآبة التى تظلل المكان فقال باسمًا :

- «لكن المشكلة عندما يأتى الرجل المناسب ليخطبك منى . . » .

ابتسمت رشيدة فى خجل، ولم تتكلم، بل أدارت وجهها الناحية الأخرى، بينما استطرد أبوها قائلاً :

- «عندئذ سأقول لذلك الرجل لا بد أن تقيم هنا فى بيتنا . . . سيكون فى مقام ابنى الكبير . . . » .

قالت رشيدة فى كلمات حية متلعثمة :

- «بابا . . أنت عندى بالدنيا كلها . . » .

وهز الأب رأسه ثم قال :

- «أشعر بالإرهاق، وقد قررت أمراً . . . » نظرت إليه رشيدة فى دهشة :

- «ماذا يا أبى؟؟» .

قال عبد العال :

- «كانت حياتى كلها عمل فى عمل . . ولأول مرة أقرر السفر إلى الخارج فى عطلة . . . وسنكون معًا يا رشيدة . . . الصيف على الأبواب . . . هذه هى نصيحة طبيبك . . . وأعتقد أنك سوف تفرحين جداً عندما تعلمين أن الطبيب سوف يلحق بنا هناك ليقضى فى ضيافتنا بعض الوقت . . » .

دق قلبها من الفرح، وشعرت بسعادة غامرة. . ومضى أبوها قائلاً:

- «لقد اعتذر فلم أقبل. . تعلل بالعمل والمسئوليات فأصررت على موقفى. . قلت له: أنت الآخر فى حاجة ماسة إلى عطلة. . فوافق. .»

وسافر عبد العال وابنته والطفلان إلى أوربا، ومعهم بعض الخدم، ونزلوا بإحدى المدن الساحلية. . . وكانت رشيدة فى حقيقة الأمر، تنتظر كل يوم حضور الطبيب. . .

كان ماهر يجلس فى مكانه الجديد، فى حى شعبى مزدحم، وكانت الغرفة التى يقيم فيها صغيرة كالحة، الجدران مغطاة ببعض الممثلات الأجنبيات العاريات، وعلى الأرض تكومت الأوراق إلى جوار عدد من الحقائب الجرباء. . .

ودخلت عليه عشيقة الأمس. . . . حرم عبد العال سابقًا. . . لم يكترث لدخولها. . . ظلت واقفة برهة. . كانت عيناها محتقنتين. . . ووجهها برغم بدانته ذابلاً شاحبًا. . . وقال:

- «لماذا تهرب منى؟؟».

صب كأسًا، وقال:

- «ألك فى كأس؟؟».

قالت :

- «أتتركنى فى محنتى وتهرب؟؟» .

قال فى هدوء :

- «لم أهرب ، لقد طردنى عبد العال من العمل ومن المسكن ، فكان لابد أن أبحث عن مكان آوى إليه حتى أجد الفرصة للتفكير والبحث عن عمل . . .» .

سددت إليه نظرات غاضبة :

- «أنت تراوغ كالثعلب» .

- «أنا مثلك فى محنة» .

- «وحبنا القديم يا ماهر؟؟» .

ضحك فى بذاءة :

- «هاأنت بنفسك تقولين إنه قديم . . الحب لا يستمر مثل الفقر والتعطل . . .» .

جرّت مقعداً صغيراً يكاد يكون مفككًا ، وجلست لاهثة ، وهى تقول :

- «لقد أعطيتك من المال ما يكفى لعشر سنوات قادمة . . .» .

جرع كأسًا ، وهو يقول :

- «ذهب مع الريح . . .» .

أمسكت بكمه . . . وشدته فى غلظة :

- «من الطبيعى أن نتزوج . . .» .

نظر إليها فى دهشة ، وقال :

- «هل جننت؟؟» .

هتفت فى ذعر قائلة :

- «ماذا؟؟ لا أكاد أصدق أذنى . . . هل قلتها فعلاً» .

استدار صوبها ، وقال فى هدوء :

- «حرم عبد العال بك سابقًا . . . المليونير الكبير . . . تتزوج صعلوكاً شريداً مثلى؟؟ إن ذلك يعنى الانتحار . . .» .

قالت :

- «لكننى موافقة ، وأريد ذلك» .

- «وأنا لا أستطيع أن أشارك فى ارتكاب هذا الخطأ الفادح . . إن سيدة القصر الكبير لا يمكنها أن ترضى بحياة الأكواخ . . . والغرف المنعزلة فوق أسطح العمارات الكبيرة . . . . حيث لا ثلاجات ولا غسالات . . . ولا خدم . . . أنت واهمة . . .» .

نظرت فى عينيه بثبات وغضب قائلة :

- «أيها النذل إننى أعرفك . . .» .

رد دون اكترث :

- «ما دمت تعرفيننى فهذا يسهل المهمة كثيرًا . . .» .

- «إذن فأنت كذلك؟؟» . .

- «بالتأكيد . . . . الاعتراف بالحق فضيلة . . .» .

- «لا تتحدث عن الفضائل أيها الوغد النذل . . .» .

أمسك بيدها متوددًا، وقال :

- «تعالى . . . نحن من جنس واحد . . .» .

انتزعت يدها منه وهدرت :

-«لقد ضحيت بأكرم وأشرف رجل . . . وضحيت بالطفلين . . . والنعيم الذى كنت أتمرغ فيه من أجلك . . . . من أجلك أنت . . . قلت لنفسى لقد فقدت كل شىء . . . وبقى الحب . . . هكذا قلت . . . كلماتك الحلوة لم تزل تطن فى أذنى . . . غزلك الرقيق . . . الكئوس البراقة التى علمتنى شربها . . . التفانى فى خدمتى . . . هل كل هذا كان وهمًا . . . تكلم . . لماذا سكت؟؟» .

قام من مكانه، ثم أحضر لفافة كبيرة، وأخرج منها بعض قطع

اللحم المشوى والخبز والمخللات، ثم وضعها على منضدة خشبية صغيرة، وقال:

- «لماذا لا نأكل أولاً؟ إننى أشعر بجوع شديد. . . ».

قالت فى غيظ:

- «حيوان. . . ».

قهقه وقد لعبت الخمر برأسه:

- «يقولون إن الإنسان أصله قرد. . . ».

وأخذ يلتهم الطعام فى شراهة غريبة، ويقول:

- «وأنا كالبحار. . . . سائح دائمًا من ميناء إلى ميناء. . لا أستقر على أى شاطئ فترة طويلة. . . هذه هى الوظيفة العشرون التى أطرد منها. . . لقد تعودت على ذلك. . . . أما الشىء الذى لم أتعود عليه فهو الزواج. . . ليس هذا أنانية منى. . . ولكن رحمة بمن أحب. . . لا أريد الشقاء لزوجتى ولأولادى. . . هكذا خلقت . . . . سائح دائمًا. . . . متشرد دائمًا. . . . ليس لى أرض ولا وطن. . . رجل عالمى. . . الغد لا أفكر فيه. . . ».

انقضَّت على عنقه، ونشبت أظافرها، فنطحها كالثور برأسه، ثم دفعها وهو جالس، فارتمت على ظهرها مقهورة، وظل يمضغ الطعام. . . ثم قال:

- «تستطيعين أن تعيشى معى هكذا دون زواج . . . . بشرط أن ترحلى عندما تشائين . . . وأن أرحل فى الوقت الذى أريده . . . » .

هتفت ، وهى تعتدل من سقطتها :

- «والنهاية أيها الخنزير القذر . . . » .

- «لم أفكر فيها بعد . . . لسبب بسيط . . . وهو أنها مازالت فى طى الغيب . . . أنا ابن اللحظة التى أعيشها . . . كونى مثلى . . . » .

وغاب فكرها إلى بعيد . . . بعيد لكنه ماضٍ قريب . . . القصر . . الأطفال . . . الاستقرار . . . حياة لاهية بلا هموم . . . . ثم أخذت تفكر فى الغد . . . الظلمات متكاثفة . . . والسماء ملبدة بالغيوم . . . وشعور بالغربة والوحشة والوحدة ينهش كيانها . . . كيف تسير وحدها فى الدنيا . . . . الطريق طويل يغشيه العذاب والألم . . . الأشواك تفرشه . . . والأوحال والذكريات التعسة . . . ونظرات الناس وهمساتهم . . وصديقاتها فى البيوتات الراقية العريقة . . . حاولت أن تحدد شيئًا . . . أن تصل إلى حل . . . أن تتخذ موقفًا . . . نظرت إليه . . . . إلى ماهر . . . كان لا يزال يأكل كالوحش الجائع وهو ينهش فريسة . . . ثم يشرب . . . يأكل ويشرب ويتجشأ . . . ثم تمتمت :

- «آسفة يا ماهر. . . اغفر لى طيشى وكلماتى البذيئة. . . لم أزل أحبك. . . وسأظل أحبك. . . وسأبقى معك برغم كل شىء. . . وأعدك بأنى سوف أجد لنفسى مخرجًا. . .».

قال وهو يتطوح:

- «هذا عين العقل. . . والآن أعدى السرير، وغيرى ملابسك. . . فقد اشتقت إليك كثيراً. . . .».

ثم نظر إلى الذهب والمجوهرات التى تلبسها، وقال:

- «إنك تحملين ثروة تكفينا لأكثر من عام. . .».

وانصرفت لتغتسل وتغير ثيابها. . . . وانكفأ هو على المنضدة لكثرة ما شرب. . . وعندما عادت حاولت أن توقظه. . .».

قال فى غلظة:

- «اتركينى. . .».

- لقد شربت كثيراً. . . فلتنتقل على الأقل إلى السرير. . وأخذت تساعده. . . . وما إن وصل إلى السرير حتى ارتمى نائمًا. . . وكأنه فى غيبوبة. . .

دارت فى جنبات الشقة الصغيرة. . تطلعت من النافذة. . الطريق مزدحم بالبشر. . والأطفال يلعبون. . نعم الأطفال. .

تذكرت طفليها . . والعربات الفارهة تنزلق فى نعومة وفخامة على الطريق . . ثم عادت تنظر إلى الرجل الراقد على السرير . . يغط فى نومه . . وفى هدوء تام تسللت إلى المطبخ . . وأحضرت سكينًا كبيرة . . وبالهدوء نفسه جلست إلى جواره . . وكأنما أصابتها فجأة لمسة كهربائية فانقضت على عنقه الضخم واحتزته فى سرعة هائلة . . وتدفق الدم . . حاول أن ينهض فلم يستطع . . فتح عينيه فى وهن . . كان يطل منهما الرعب الرهيب . . شرايين العنق يندفع منها الدم غزيرًا . . وهى تبتسم فى بلاهة . . وتغسل يديها فى الدم المنسكب . . ثم تمسح على شعره ووجهه . . ثم أطلت من النافذة وأخذت تزغرد وتصيح :

- «لقد قتلته . . » .

وأخذ المارة ، وسكان الحى المزدحم يتجمهرون . . .

•••

حينما وصل الطبيب إلى المصيف فى أوربا كانت رشيدة فى قمة سعادتها . . . وقضت الأسرة فترة هادئة جميلة ، استعاد فيها عبد العال نشاطه وحيويته . . ولم يكن أحد يتطرق إلى موضوع المأساة من قريب أو بعيد .

وذات أصيل والبحر يمتد إلى بعيد ، ورشيدة تتصفح كتابًا جديدًا أحضره لها الطبيب معه ، قال الطبيب :

- «لم تسألينى . . ».

نظرت إليه، وفهمت على التو ماذا يعنى . . لكنها قالت :

- «إننى أحاول أن أنسى . . لكنى لا أكتمك أننى متشوقة لمعرفة مجريات أمورها . . لا تنسى أن لى أخوين منها . . ها هما يلعبان هناك مع أبى . . ».

- «مسكينة . . إننى دائمًا أشعر بالألم من أجل الآخرين حتى ولو كانوا ممعنين فى الخطأ . . لقد قتلته . . ».

هبَّت من مقعدها هاتفة :

- «ماهر . . مات؟؟».

هز رأسه قائلاً :

- «وهى تحت الحراسة فى مصحة للأمراض العقلية . . ».

أفلتت من عينيها الدموع وهى ترمق أخويها الصغيرين . . وبعد أن شرح لها القصة كاملة . . عاد يقول :

- «من الأفضل لكم أن تنتقلوا إلى مكان آخر . . إنها مجرد محاولة للنسيان . . لقد كانت القصة على كل لسان، وكتبتها الصحف دون ذكر أسماء . . ».

وكفّا عن الكلام عندما أتى عبد العال وفى يده الطفلان وأخذ يقول :

- «ألا تشعران بالجوع؟؟».

وقامت رشيدة، وضمت الطفلين إلى صدرها.. كان وجهاهما يشرقان بالبراءة والابتسام والصفاء.. والأمل.

ومرت الأيام واستطاعت رشيدة أن تستأنف دراستها وتنال الثانوية العامة، وتلتحق بمعهد الخدمة الاجتماعية العالى.. واستمرت العلاقة قائمة بين عبد العال والطبيب، ومرور الأيام والليالى يشفى من الجراح القديمة.

أصبحت رشيدة كالزهرة المتألقة اليانعة... واتخذت سمة سيدة القصر المسئولة التى تدرك عظم المسئولية، وكان لثقافتها وجمالها وشخصيتها ما يلفت إليها الأنظار، لكن الشىء الغريب الذى لفت نظر أبيها هو رفضها كل من تقدموا للزواج منها، وكانت حجتها هى أنها لا بد أن تكمل مرحلة التعليم الجامعى، وذلك يحتاج لثلاث سنوات، ثم مسئوليتها نحو أبيها وأخويها... وذات مساء جاء عبد العال لرشيدة، وقال:

- «أى بنيتى... لم يعد لك مكان هنا...».

نظرت إليه فى دهشة:

- «لا أفهمك يا أبى..».

قال مبتسمًا وعلى وجهه خجل الكبار الوقور:

- «كان لا بد أن أتزوج . . » .

احتضنته فى حب، وقالت :

- «لكم أنا سعيدة يا أبى . . إنها لا شك ستسد فراغًا كبيرًا لا يمكننى أن أسده مهما بذلت من مجهوداتى . . ليس هناك ما يمنعك من الزواج . . » .

- «إننى أغار عليك لا شك . . لكن هذه طبائع الأمور . . أطال الله لنا فى عمرك . . » .

وضع عبد العال يده على كتف ابنته، وقال :

- «والآن سقطت حجتك القوية فى عدم زواجك أنت . . » .

قالت :

- «والتعليم يا بابا» .

- «وستستمرين فيه» .

وتنحنح ثم قرصها فى خدها قائلاً :

- «والطبيب تعهد بذلك . . » .

جمدت فى مكانها . . تسارعت دقات قلبها . . تثلجت أطرافها . . حاولت أن تتكلم لكنها لم تستطع فى البداية، وأخيرًا هتفت فى ارتجاف شجى :

- «هو؟؟».

ضحك أبوها، وقال:

- «نعم هو.. نحن مدينون له بالكثير.. والأهم من ذلك كله أنه يحبك.. وماذا تنتظرين؟؟ أخلاق.. علم.. نجاح.. حب.. أهناك شيء آخر؟؟».

أرخت أهدابها فى سعادة، وقالت:

- «أمرك يا بابا..».

●●●

وادى الأحلام

هناك كثير من الناس يصنعون لأنفسهم عالمًا من الوهم، ويضفون عليه الكثير من الألوان الزاهية، والديكور الجميل، ويبتدعون لحياتهم فيه أنماطًا مثيرة فريدة، ويتمادون فى خيالاتهم، حتى يصبح الوهم وكأنه حقيقة قائمة، ومن ثم يحسبون أنهم بلغوا السعادة التى ما بعدها سعادة، ويستعذبون ما هم فيه من وهم وخداع . . لكن إلى متى؟؟

كانت المدينة «الجامعية» تعج بأخلاط عديدة من الشباب، أتوا من الشرق والغرب، والمدينة الجامعية- أو قصر الرخام- كما أطلق عليه بعض الصحفيين آنذاك تقع على مقربة من الجامعة الكبرى، حيث تتراص مختلف الكليات العلمية والنظرية، والحق يقال إن المدينة الجامعية كانت مبنى رائعًا شامخًا، تتوسطة الزهور والأشجار الخضراء، وفيها الكثير من الرفاهية، على الرغم من أن الطالب المقيم فيها يدفع مبلغًا زهيدًا جدًا من المال كل شهر، مبلغًا لا يزيد على ثلاثين درهمًا، لكن ذلك كان منذ أكثر من ربع قرن . .

وكان معنا فى تلك الفترة طالب طب اسمه فريد، كان فارع الطول، أسمر اللون، على قسمات وجهة قدر غير قليل من وسامة، وكان يمضى فى طريقة دائمًا شامخ الأنف، متغطرسًا، وأحيانًا لا يرد على من يناديه، متظاهرًا بأنه لم يسمع النداء، وكان كثير الشكوى من رداءة الطعام، ساخطًا على سوء الرعاية والنظافة والنظام، وكنا نقف أمام انتقاداته مشدوهين حائرين، إن كلامه يناقض الحقيقة تمامًا؛ لأن كل شىء فى المدينة يبدو فى نسق رائع بديع، والطعام شهى لذيذ، وكمياته كثيرة، والمطعم حديث وعلى أحدث طراز، وأنواع اللحوم المختلفة والخضراوات والفواكه تقدم لنا صباحًا ومساء وظهرًا. . كانت هذه الأشياء كلها أكثر مما ينبغى. . وأخذنا- مع ذلك- نلتمس له المعاذير. . إنه شاب مرفه، ومن أسرة عريقة من أثرياء الأقاليم، ويبدو أنه تربى على التدليل والبذخ. . فالأمر بالنسبة له يختلف عنا تمام الاختلاف. . ومع كثرة شكواه. . وتردده على إدارة المدينة صاخبًا عاتبًا، أفلت الزمام من أحدنا وصاح فيه:

- «ماذا جرى يا فريد؟؟ إن كل شىء على ما يرام. . يجب أن نحمد الله. . ».

هاج فريد وماج، وأقسم أيمانًا مغلظة أن لن يذهب إلى قلب المدينة لكى يتناول طعامه، وأن هذه الحياة لم تعد تطاق، وأننا أذلاء

وعبيد إذ نقبل بهذا الوضع السيئ الذى يتنافى مع كرامتنا كبشر . . وأخذنا نهدئ من روعه، ونخفف من غضبه، ونلتمس مختلف المعاذير، حتى لكأننا نحن المسئولون عن كل ما يحدث . .

وكان لفريد عشرات من القصص الغرامية كنا نجلس أمامه كالتلاميذ الصغار، ونستمع إلى حكاياته العذبة، ومغامراته المثيرة، وهو يعلق ويضحك، ويقذف بأخطر الكلمات، وأعجب الأخبار ببساطة مذهلة، ونحن ننظر إليه فى دهشة . . كان يشعرنا دائمًا بالحرمان . . والخوف . . والسذاجة . . وضآلة التجربة . . وأحيانًا كنا نسخط على الحياة، وعلى نصيبنا التافه منها . . .

غير أن الشيء اللافت للنظر، أنه يواظب دائمًا على المحاضرات والدروس العلمية، ويستغرق فى مذاكرته اليومية، كنا نعرف ذلك عنه جيدًا، وإن كان يظهر لنا أن الدروس سهلة، وأنها لا تحتاج إلا لقدر قليل من المراجعة .

وحينما كنا نعد أنفسنا للسفر إلى بلادنا فى عطلة نصف العام، ونحزم حقائبنا البسيطة، فوجئنا بفريد جالسًا فى غرفته . . قلت له :

- «ألن تسافر؟؟» .

قال فى غضب :

- «كلا . . » .

- «لماذا؟؟ ألا تريد أن تزور أباك وأمك وأهل بلدك؟؟؟».

- «بينى وبين بابا خلاف شديد. .».

- «لماذا؟؟».

- «يريد أن يعطينى سيارته المرسيدس القديمة. . فكيف يضن علىّ بالسيارة الجديدة. . والكارثة الكبرى مشروع زواجى. .».

قلت فى دهشة:

- «هل ستتزوج فى هذه المرحلة الحاسمة من الدراسة»؟

رفع فريد رأسه فى كبرياء، وقال:

- «هل لأن أباها من كبار الأثرياء، ويمتلك الضياع الواسعة. . هل هذا يكفى كسبب لخطبتها؟؟ مستحيل. .».

حينما عدنا من العطلة القصيرة، فوجئنا بأمر غريب، إن إدارة الجامعة قد وضعت على باب الإدارة قائمة بأسماء الطلبة الذين لم يسددوا الاشتراكات الشهرية للمدينة الجامعية، كما قررت إخراجهم منها إذا لم يسددوا ما عليهم من اشتراكات متأخرة فى ظرف أسبوع واحد. . وكان اسم فريد بين هذه الأسماء. . وبدا الأمر لا يكاد يصدق، وكان من الحرج الكبير أن نسأل فريد عن السبب، من نحن حتى نستفسر منه؟؟ وأخذنا نناقش الأمر فى جلساتنا الخاصة بعيداً عن فريد. . قال أحدنا:

- «لا بد أن فى الأمر سراً . . » .

قال آخر :

- «فريد على خلاف مع أسرته بسبب المرسيدس والزواج . . » .

وكان زميلنا «عبد الرحمن» شاباً مشاكساً شكاكًا كثير السخرية ، لا يغلف عباراته بشيء من اللياقة أو المجاملة ، عهدناه أن يلقى بالحقيقة عارية مجردة مهما كانت مؤلمة . . عدل عبد الرحمن من وضع نظارته الطبية ، ثم مد رأسه الأشعث ، وقال :

- «هذا الولد كذاب . . أحلق شنبى لو ما كان جربوع . . وأنا سوف آتيكم بالخبر اليقين . . » .

كنا نرى فريد فى تلك الفترة لمامًا ، كان يتحاشى لقاءنا ، ويعتكف فى غرفته أغلب الأحيان ، ولا يذهب لقاعة الطعام إلا فى وقت مبكر جدًا أو متأخر جدًا ، ولم تطل حيرتنا ، فقد جاء عبد الرحمن إلينا يلهث وعلى وجهه تبدو الشماتة الممتزجة بالسخرية . . وقال :

- «عرفت كل شيء . . لقد اطلعت على ملفه الشخصى فى الكلية . . » .

أيها الأصدقاء . . ليس الفقر عيبًا . . كلنا والحمد لله عقدنا مع الفقر معاهدة أبدية . . لكن العيب الأكبر هو الكذب . . اسمعوا

الحقيقة كاملة . . أبوه رجل عجوز بلا عمل . . شهادة الأملاك المصدق عليها من الجهات الرسمية تثبت أن أباه لا يمتلك شيئًا . . وعنوان بيتهم فى زقاق قديم عفن . . لا رقم له . . المرسيدس خرافة . . والزواج من بنت الثرى الكبير وهم فى وهم . . وقد تتساءلون : كيف يعيشون إذن؟؟ أنا أيضًا سألت نفسى هذا السؤال . . معذرة . . كان لابد أن أبحث عن الجواب؟ لأنى أؤمن بالمنطق والعلم ، والقضية التى أتعرض لها- أية قضية- لا بد أن أدرسها من كل جوانبها . . لا تحزنوا . . إنها الحقيقة المرة . . والفقر ليس عيبًا كما قلت لكم . . أخته الصغيرة تعمل فى مصنع صغير «للتريكو» . . وأخوه الأكبر يعمل بأجر يومى فى أحد الجراجات . . أما «مامى» التى يحدثنا عنها كثيرًا ، ويروى لنا الأساطير عند تدليلها له ، فقد ماتت منذ زمن بعيد . . إنه يتيم الأم يا أصدقائى . . أنا أيضًا مثله . . أمى ماتت ، وزوجة أبى الجديدة أذاقتنى المر والهوان . . لعنة الله عليها . .

وطفرت دمعة من عين عبد الرحمن . . تسللت الدمعة من تحت نظارته البيضاء . . ولمعت على خده الشاحب وقت الأصيل ، وجفف عبد الرحمن دمعته ، ثم استطرد قائلاً :

- «أنا لا أحقد عليه . . بل أرثى لحاله . . هذا المسكين أين يذهب عندما يطرد من المدينة الجامعية . . » .

قلت فى أسى:

- «هذه مشكلة عويصة..».

هتف عبد الرحمن فى غضب:

- «أنت لم تضف شيئًا جديدًا.. نعلم أنها كارثة.. لكن ما الحل؟؟ قلت لكم ألف مرة، إننى عندما أدرس قضية، لا بد أن أتناولها من جميع جوانبها.. ولعلكم تعذروننى فى اطلاعى على ملفه الشخصى، والسؤال عن بعض معارفه الذين يعيشون معه فى نفس مدينته، عندى فكرة...».

هتفنا جميعًا بصوت واحد:

- «ما هى؟؟».

قال عبد الرحمن:

- «إن طلبة الطب بالمدينة يربو عددهم على العشرين وليس أمامنا سوى أن نفتح باب التبرعات.. لا بد أن يدفع كل واحد منا جنيهًا واحدًا على الأقل.. المسكين لم يدفع الاشتراك منذ أربعة أشهر.. وقد علمت أنه يبحث لنفسه عن غرفة صغيرة على السطوح فى حى شعبى.. وهذا لم يحل مشكلته.. إنه مجرد إسعاف سريع.. هيا..».

وفى بضع ساعات استطعنا أن نجمع المبلغ المطلوب، ودون أن

يدرى أحد تسلل «عبد الرحمن» إلى الإدارة، ودفع اشتراكات فريد. . ثم أخذ إيصالات الدفع، وذهب خفية إلى غرفته، ثم وضعها على مكتبه. . وعلى الفور حُذف اسم فريد من قائمة المفصولين. . بالطبع. . لقد حاول فريد أن يلم بما جرى، لكن دون فائدة. . لكنه برغم كل شيء كان ذكيًا. . كان ينظر إلى وجوهنا. . فنهرب من نظراته المتسائلة.. . فيهز رأسه وينصرف. . ومع ذلك فلم يكن من السهل عليه أن يتقبل ما جرى. . كان ينتهز الفرصة، ويعلن عن أنه مستهتر. . وأنه يبذر كل ما يصل إلى يده من مال. . وأنه قد أخذ الاشتراكات الشهرية من أبيه أكثر من عشر مرات. . وأنه. . وأنه. . لكنه لم يعد يذكر السيارة المرسيدس، ولا الزواج من ابنة الرجل الثرى. .

وذات مساء دخل عليه عبد الرحمن فى غرفته، قال عبد الرحمن دون مقدمات:

- «فريد نحن إخوة. . ».

- «إننى أفهم كل شىء. . ».

- «وهذا سوف يسهل مهمتى. . ».

نظر إليه فريد فى دهشة، وقال:

- «ماذا تعنى؟؟».

- «لن نستطيع بالوهم أن نحل مشاكلنا. . لا بد أن نجابه

الواقع . . أن نعمل شيئًا، عندئذٍ نستطيع الوصول إلى الحل الأفضل . . ».

طأطأ فريد رأسه فى خجل، ثم رفع وجهه شاحبًا مضطربًا، وقال :

- «من دفع عنى الاشتراكات؟؟».

- «نحن . . ».

- «ما كان يجب أن يحدث ذلك . . إنه كثير . . ».

لم يعلق عبد الرحمن، وإنما مضى فى خطته قائلاً :

- «عمل بسيط وسوف يدر عليك دخلاً يربو على عشرة جنيهات . . . ».

لم يستطع فريد هذه المرة أن يعلق، وقال عبد الرحمن :

- «تستطيع أن تعمل لمدة ساعتين فى اليوم فقط . . حسابات لمحل بقالة من العاشرة حتى الثانية عشرة مساء . . لكى تجد الحل فلا بد أن تعمل . . أغلبنا يفعل ذلك . . ».

ومضى عبد الرحمن بكلماته الحادة، يحفر فى قلب فريد دون رحمة :

- «الوهم الذى تعيش فيه ليس جنة . . إنه جحيم لا يطاق . .

وسوف يأخذ ذلك الوهم بيدك إلى كارثة محققة إن لم تنتبه . . أتغضب من قول الحقيقة؟؟ أقسم إننى أحبك، وأتمنى لك كل خير . . ».

وكم كانت دهشة عبد الرحمن عندما وجد فريد يندفع نحوه، ثم يطوقه بذراعيه ويمطر رأسه ووجهه بالقبلات، ويضمه إلى صدره فى ود أصيل، وكانت الدموع تبلل أهداب فريد، وبعد أن عاد إلى مجلسه تمتم :

- «لقد كنت قاسيًا يا عبد الرحمن . . لقد هدمت الحصن الكبير الذى كنت أهرب إليه من واقعى الأليم . . من أحزانى وتعاستى . . ».

قال عبد الرحمن :

- «إنى أقدم اعتذارى . . لكن هل كنت تتصور أن الوهم يصنع حصنًا حقيقيًا . . ».

- «هكذا تصورت . . أردت أن أخدع الواقع . . الفقر ذل يا عبد الرحمن . . والناس لا يحترمون الفقير . . لذا هربت إلى أحلام اليقظة . . ».

أمسك عبد الرحمن بكتفه، وقال :

- «ومتى ستذهب للعمل؟؟».

- «وهل سيرانى أحد من الزملاء ؟؟» .

- «اطمئن . . إنه مكان بعيد . . وليس فينا من يتردد على مثل تلك المحلات . . » .

●●●

ومضت سنوات طويلة ، وتخرجنا ، وذهب كل إلى حال سبيله ، إن ربع قرن من الزمان كفيل بأن يغير الكثير من الأوضاع الاجتماعية والنفسية ، ليس هناك شىء يبقى على حاله . . وفى الصيف الماضى كنت أسير فى أحد شوارع المدينة الكبيرة . . ومرت بى سيارة مرسيدس مسرعة . . لكنى سمعت صياح عجلاتها وهى تتوقف تدريجيًا . . ونزل منها ضابط عملاق يضع على كتفه رتبة كبيرة بالإضافة إلى الشارة الطبية . . وقدم نحوى فاتحًا ذراعيه . .

- «مَنْ؟؟ فريد؟؟» .

كان لقاء عامرًا بالحب الصادق . . أعاد إلى الأذهان أيام الشباب الأولى ، وذكريات الكفاح الحلو ، وروعة الآمال الكبيرة . .

قلت :

- «أين تعمل الآن؟؟» .

قال :

- «فى مستشفى القوات الجوية» .

- «وكيف حال الوالد؟؟».

- «تعيش أنت..».

- «الله يرحمه..».

ثم طوق عنقى بذراعه القوية، وهو يقول:

- «وأنت؟؟».

- «كما ترى.. من بلاد الله لخلق الله..».

وأخذت أسأله عن الأصدقاء.. آه.. عبد الرحمن يعيش الآن فى أمريكا وهو جراح كبير فى أمراض الجهاز الهضمى.. عمر.. عليه رحمة الله فاجأته نوبة قلبية.. وسعيد أستاذ فى الكلية... وعاطف استشارى تخدير فى أقصى الجنوب... وحسن هجر الطب والتحق بالسلك الدبلوماسى.. وبعد جولة على الأقدام.. افترقنا على ميعاد.. لكننى نسيت أن أقول إن فريد تزوج من ابنة أحد رجال الأعمال الكبار.. لقد تحقق له الأمل... المرسيدس والزوجة بنت الرجل الثرى..

●●●

عالم الأسوار والقضبان

عالم السجون عالم غريب عجيب. . وعلى الرغم من أن كلمة سجن توحى بالخوف والرهبة، وترتبط فى ذهن الإنسان بتصورات ومعان مثيرة. . إلا أن الذى يدلف إلى هذا المكان ويحاول أن يتعمق ما فيه، أو يدرس نفسية هؤلاء البشر الذين يعيشون خلف الأسوار. . ربما يصل الباحث إلى نتائج تختلف تمام الاختلاف عما كان يظنه بهؤلاء التعساء، باعتبارهم قساة. . غلاظ الأكباد، خارجين على المجتمع، وقد أصبحوا مطية للشر والانحراف، وارتكاب مختلف الحماقات. .

حينما رأيت السجين «عبد الحميد» بعوده الفارع، وشاربه المفتول، وبنيانه القوى الذى لا تخطئه العين، لم أستطع أن أتحول عنه. . كانت نظراته نظرات صقر. . وخطواته تشبه خطوات أمير شاب. . كل شىء فيه يوحى بالغطرسة والكبرياء والثقة الكاملة بالنفس، وعدم الاكتراث بما يدور حوله. . ووجدتنى أسأل صديقى طبيب السجن:

- «من هذا؟؟؟» .

ضحك الطبيب فى سخرية، وقال وهو يهز كتفيه دون اكتراث :

- «مجرم !! ماذا تظنه إذن؟؟؟» .

- «أعرف . . لكن ما هى جريمته؟؟؟» .

- «القتل . . » .

ولا أدرى لماذا أخذت أفكر فى «عبد الحميد» بالذات، فالسجن ممتلئ بالقتلة واللصوص وتجار المخدرات والمحتالين . . لماذا عبد الحميد بالذات؟؟ وتساءلت بينى وبين نفسى إذا كان هذا الرجل قاتلاً، فلماذا لا تبدو على وجهه علامات الندم والألم، وإذا لم يكن حزينًا أو آسفًا من أجل الجريمة التى ارتكبها، فلماذا لا يحزن من أجل هذه السنوات القاحلة التعسة وراء تلك القضبان القاسية . . والأسوار الشائكة والجدران الغليظة . . حيث يجف نبع الحنان . . وتنطفئ شعلة الحرية والحب؟؟

ولعل صديقى طبيب السجن أدرك ما أفكر فيه، إذ سمعته يقول :

- «هؤلاء السجناء مثل البهائم تمامًا . . إنهم لا يعرفون الحلال من الحرام . . الإجرام طبيعة فيهم . . الواحد منهم يرتكب الجريمة . . ثم لا يبالى . . بل ربما يكون سعيداً بارتكابها . . ويتباهى

بها بين الناس . . لو كان الأمر بيدى لبترتهم بترًا من المجتمع . . تصور . . إنهم جميعًا يكذبون . . لم أعد أصدق أحدًا منهم . . أو أحترم أى مخلوق بينهم . . » .

لم أكن مقتنعًا بما يقوله الطبيب تمامًا، فليس فينا من يعرف ظروف هؤلاء الناس، ولا الدوافع التى أوقعتهم فى مستنقع الخطيئة . . ولا الأجواء النفسية التى تصرفوا تحت وطأتها، فقد كان اعتقادى دائمًا أن الجريمة مرض . . والنفاق مرض . . والكذب مرض . . كل هذه الآفات الاجتماعية، ينطبق عليها ما ينطبق على أية علة من العلل، فلا بد أن تكون هناك أسباب وراء ظهورها . . وبالتالى لا بد أن نعثر على العلاج الذى ننشده، وحينما شرحت لصديقى الطبيب وجهة نظرى، أخذ يقهقه ويقول :

- «كلام كتب . . كلام فارغ . . أنا عشت بين السجناء أكثر من عشر سنوات . . والآن أتعرف ما هى أمنيتى؟؟» .

قلت فى هدوء :

- «طبعًا . . أن تنتقل من السجون، وتذهب إلى إحدى المستشفيات المركزية . . » .

صاح فى حدة :

- «لا . . بل أتمنى أن تنقض صاعقة فوق هذا السجن وتحرق كل من فيه حتى يرتاح العالم من شرهم . . » .

قلت له: «وأنت؟».

قال وهو يشعل سيجارة:

- «وأنا معهم..».

كنت أعلم أن صديقى الطبيب قد عانى الكثير أثناء عمله فى السجون، كان السجناء يدبرون له المكائد، ويلفقون له التهم.. لماذا؟؟ لأنهم كانوا يطلبون منه أن يحيلهم إلى مستشفى السجن، أو المستشفيات الخارجية، لكنه كان يرفض؛ لأنه يدرك أن الكثيرين منهم ليسوا بمرضى.. ولكنهم متمارضون.. وكان آخرون يطلبون منه وجبات غذائية متحسنة أو إضافية، غير أنه لم يكن يوافق على ذلك حيث لايرى مبرراً لطلباتهم، وكان من جراء ذلك أن أحاطوه بجو من الشائعات الكاذبة حتى أساءوا لسمعته.. رموه بتهمة الرشوة.. ونسبوا إليه الاتجار بالمخدرات وإيصالها للمدمنين داخل الزنازين.. بل دسوا له فى جيب معطفه الأبيض قطعة من الحشيش.. أشياء كثيرة ارتكبوها فى حق الطبيب.. كنت أعرف ذلك..

وسمعت صديقى الطبيب يقول:

- «إذا أردت أن تعيش مع هذه الحشرات الدنيئة فابعد عن قلبك كل مشاعر العطف والرحمة.. اضربهم كما يضربهم السجان.. ابصق فى وجوههم.. هؤلاء ليسوا آدميين..».

وأردت أن أغيـر دفـة الحـديث . . لكـن صـديقي الطبيـب هبّ ثائرًا، ثم قال:

- «أنت طبيـب جـديد . . ومن سـوء حظك أنك أتيت لهـذه الأرض الملعـونة . . عن إذنك . . سـأقـوم بعطلتى السنوية . . أستودعك الله . . » .

وبقيت أفكر فى «عبد الحميد» ترى أية جريمة ارتكب؟؟ ولماذا؟؟

كانت مصادفة عجيبة حينما ذهبت إلى مأمور السجن . . لقد وجدت «عبد الحميد» هناك . . لم يكن وحده . . ها هى زوجته . . لا شك أنها هى . . يا رب كم هى جميلة!! إنها ترتدى زيًا محتشمًا أسود اللون يلمع تحت شعاع الشمس المتسلل من النافذة . . وعيناها المكحولتان يختلط فيهما الشوق . . بالألم . . بالحرمان . . وفمها الصغير الخالى من أية أصباغ مطبق صامت . . عبد الحميد يتكلم ويميل بعنقه حولها . . ويشير بيده اليمنى . . ويمسك كفها . . لكن يده ترتجف والعرق يتقاطر على جبينه القمحى اللون . . ويتلفت من آن لآخر فى حيرة . . وضيق . . وحرج . . هكذا الأوامر إن الزيارة الشخصية للسجناء يجب أن تكون بحضور وإشراف الضابط المسئول . . كانت الزوجة كالثمرة الشهية الناضجة أمام عينى عبد الحميد الجائع المحروم . . لكنه عاجز . . وتساءلت: «لماذا يقتل عبد الحميد؟؟ لو كنت مثله لتسامحت . . وتسامحت . . حتى أبقى

هانئًا سعيدًا إلى جوار هذه الزوجة الفاتنة . . الطيبة . . إنها دنيا من حب وجمال ومتعة . . » قلت ذلك هامسًا . . وعبد الحميد غارق فى مناجاته الصامتة . . قال المأمور بهدوء :

– «الإنسان أحمق . . تافه . . أتدرى لماذا قتل عبد الحميد؟؟» .

قلت فى تلهف :

– «لا ! ! أريد أن أعرف» .

غمز المأمور بطرف عينه ، مشيرًا ناحية السجين وزوجته ، ثم قال :

– «هى السبب . . » .

– «كيف؟؟» .

– «كلمة إعجاب يا دكتور . . كلمة كتلك الكلمة التى قلتها أنت الآن . . رجل من أهل القرية رأى زوجة عبد الحميد . . تتبختر كالغزال . . فتنه جمالها . . أتدرى ماذا قال؟؟ ثلاث كلمات فقط «عمرى . . فداك . . يا جميل . . » هذه الكلمات الثلاث عندما علم بها عبد الحميد جرى على الفور وانتزع بندقيته . . وأراق دم إنسان . . ثم أتى إلى هنا . . » .

نظرت إلى وجه «وهيبة» زوجة عبد الحميد ، ثم عدت إلى المأمور قائلاً :

- «لعل القتيل لم يكن فى وعيه . . لعل له عذره . . ».

قال المأمور :

- «فى هذه البلاد . . كل ما يمس شرف الإنسان . . وخاصة ما يتعلق بالمرأة . . أمر غير قابل للجدل . . يصدرون الحكم أولاً . . ثم ينفذونه . . وبعد ذلك يأتى التحقيق والشهود . . أى بعد فوات الأوان . . وقد تكون القصة مخترعة من أساسها . . ثم تسيل الدماء . . ».

وفجأة صاح المأمور بصوت أجش :

- «انتهت الزيارة . . ».

المشهد مؤلم، الجميلة الصغيرة تلم أطراف ثيابها ، والدموع تغرق خديها ، والعملاق المسحور ينظر إليها بعينين ذاهلتين، وهو يمسك بيديها ، الموقف مثير برغم الصمت، لحظات قاسية يصرخ فيها الحرمان، والشوق المذبوح والأمانى المحترقة ، والذكريات الجريحة ، وفى ثنايا ذلك كله تلوح ومضات ندم . . نعم ندم . . برغم القامة المديدة المرفوعة . . والشوارب المفتولة . . وصرامة الوجه . . الإنسان الحق لا يمكن أن يخفى أساه مهما بالغ فى الكتمان . . إننى أرى العذاب . . أرى التيه الشاسع الذى يضرب فيه . . أرى عبد الحميد القاتل حيران ضائعًا . . مقهوراً . . وصافحته وهيبة . . وقبلت يده . . ثم خطت إلى باحة السجن بخطوات جنائزية ، منكسة

الرأس، وهو يتبعها بنظراته . . كان يفرك يديه فى عصبية . . وأفاق عبد الحميد من شروده على صوت السجان :

- «انجر على زنزانتك . . لماذا تقف هكذا كالصنم . . » .

كنت أتابع ما يجرى باهتمام، وقطع المأمور حبل أفكارى حينما قال :

- «الذى يحب يا دكتور لا يقتل . . وهذا الرجل لا يعرف الحب . . » .

قلت وأنا أحاول المزاح :

- «ألم تسمع قول القائل : ومن الحب ما قتل؟؟» .

- «لا . . لم أسمعه . . كل معارك الحب والدماء التى سالت بسببه . . فى القرى . . فى الجبال فى المدن . . كلها لم تكن معارك حب . . تستطيع أن تسميها معارك حب الذات . . أو التملك الشخصى . . أو الطمع . . أو الكبرياء . . الحب الحقيقى يا دكتور لا يؤدى إلى إراقة الدماء . . » .

قلت :

- «يا سعادة المأمور . . ألم تنظر إلى وجه عبد الحميد»؟

- «بلى . . نظرت . . » .

- «ماذا رأيت؟؟».

- «رأيت الحب..».

- «إذن فقولى صحيح..».

- «أبدًا.. عندما قتل كان يرى أن الكلمات الثلاث سهام وجهت لكبريائه.. ولو قالها أى رجل فى حق زوجة أخرى لعبد الحميد حتى ولو كانت دميمة لفعل الشيء نفسه.. ذلك هو دستور حياتهم..».

صرخت فى ضيق:

- «هذا دستور جائر..».

وبعد لحظة صمت قال المأمور:

- «ألا تعرف ما حدث بعد ذلك؟؟».

- «ماذا جرى؟؟».

- «لقد أخذوا بثأرهم من أسرة عبد الحميد.. واستمر تبادل الأخذ بالثأر.. الضحايا حتى الآن عددهم سبعة.. والبقية تأتى..».

لم أنم ليلتى، إن الأيام القليلة التى قضيتها بين السجناء، وعشرات القصص التى أسمعها كل يوم قد أرقت نومى، وأثارت

فى ذهنى العديد من القضايا، هذه الانحرافات والأفكار البالية تعيش من قرون، ولا أرى باحثًا أو زعيمًا أو فنانًا ينطلق إلى تلك المناطق التعسة ليبحث فيها عن حقيقة ما يجرى، لقد سرقت المدن حقوق القرى والجبال والبوادى، وهكذا تراكم الجهل والفساد والعلل المختلفة، فنبتت فيها قيم فاسدة . .

حين دق الجرس أفقت من أحلام اليقظة التى انطلقت فى جنباتها كجواد بلا لجام . . وعلمت أن أحد السجناء فى حالة خطيرة، ولا بد من فحصه، إن فتح زنازين السجناء أثناء الليل عملية خطيرة، فلا بد أن يحضر المدير نفسه، ولا بد أن تفضَّ أختام الجمع الأحمر (الشمع الاحمر) على الأقفال، وتتخذ كافة الإجراءات الصارمة حيطةوحذرًا، ولهذا استغرقت إجراءات زيارة المريض أكثر من ساعة . . عندما وصلنا إلى الزنزانة التى بها المريض وجدناها مظلمة، هذا أمر طبيعي فى تلك الفترة الزمنية . . وسدد الضابط المناوب ضوءًا كاشفًا من بطاريتين . . إنه هو . . عبد الحميد بلحمه ودمه يرقد على برش من سعف النخيل، وقد غطى جسده ببطانية بالية . . وجسده كله يرتجف . . اقتربت منه والمسماع معلق فى رقبتى :

- «ماذا بك يا عبد الحميد؟؟» .

ابتسم برغم الألم الذى يعانيه، والرعشة التى تهز جسده هزًا، وقال :

- «أتعرفنى يا سعادة الدكتور . . إنه لشرف كبير . . » .

صاح الضابط فى عسكرية جافة :

- «كفى ثرثرة . . خلصنا . . وقل بم تشكو . . » .

قال فى ذلة وألم :

- «أنتم ترون ما أنا فيه . . » .

ابتسمت للضابط وقلت في رقة :

- «اذهب أنت . . الأمر يحتاج لبعض الوقت . . وقد أحقنه بالدواء . . » .

ومضى الضابط وترك لنا البطارية . .

قلت وأنا أعد النبض :

- «لماذا فعلت ذلك يا عبد الحميد؟ . . » .

- «لا أعرف . . وعد ومكتوب . . » .

- «هل كان الرجل يستحق القتل؟؟» .

- «أبدًا يا دكتور . . الشيطان . . لم أكن أتصور أن المسألة فيها هذا العذاب كله . . » .

قلت :

- «إنها حياة إنسان يا عبد الحميد . . » .

- «لكن ما الحيلة وقد حدث ما حدث؟ . . » .

- «أتشعر بالندم؟» .

- «لو حكموا علىّ بالإعدام فى المحكمة لكنت أستحق ، أشياء كثيرة لا نعرفها يا دكتور إلا بعد فوات الأوان . . لكن المحامى أخبرنى أنى سأخرج من السجن . . أنا ما زلت تحت التحقيق . . والقضية فيها نقطة ضعف . . والشهود تضاربت أقوالهم . . أنا مستعد لأن أدفع كل ما أملك لأبدأ حياتى من جديد . . أنا طائش . . طائش يا دكتور . . » .

قلت بعد انتهاء الفحص :

- «أما كان من الأفضل أن تحيا سعيداً مع زوجتك؟؟ ماذا لو حكم عليك بالسجن المؤبد ، وتزوجت غيرك؟؟» .

هب من رقدته مذعوراً وصرخ :

- «تتزوج غيرى؟؟ الموت أهون . . » .

كان عبد الحميد مصابًا بالملاريا ، وكان العلاج بسيطًا ، وسرعان ما تماثل للشفاء ، وكان يأتى إلىّ من آن لآخر لقد وجدته إنسانًا طيبًا بسيطًا ، وقال لى ذات يوم : «لو لم أفعل ما فعلت لما استطعت أن

أمشى بين أهل القرية . . هكذا عاداتنا من قديم . . ولو لم أفعله أنا ، لفعله واحد من أسرتى ، وفى ذلك عار كبير . . لكنى أخطأت . . كان المفروض أن أتسامح . . ولو أدى لأن أهاجر من القرية . . » .

والغريب أن القاضى حكم ببراءة المتهم «عبد الحميد» من جريمة القتل لعدم توفر الأدلة ، ولتناقض رواية الشهود بالنسبة للحادث الذى تم تحت جنح الليل . . ويوم الإفراج عن عبد الحميد ، رأيته يتفجر حيوية وسعادة ، قلت له :

- «مبروك يا عبد الحميد . . » .

- «الله يبارك فيك يا دكتور . . اطمئن سوف أدفع الدية . . وأعمل كفارة كما أخبرتنى . . » .

قلت وأنا شارد أفكر :

- «سلم على وهيبة . . » .

- «الله يسلمك يا دكتور . . » .

وضحكت وأنا أقول :

- «لكن لا داعى . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «أخاف أن تقتلنى غيرة عليها . . » .

- «أقسم بشرفى لسوف أبلغها سلامك. . إنها تنتظرنى الآن أمام السجن. . ».

وودعنا عبد الحميد وانصرف. .

لكنها دقائق قليلة. . أتى بعدها الضابط مهرولاً وهو يقول:

- «النجدة يا دكتور. . ».

- «ماذا جرى؟؟».

- «لقد نصبوا له كميناً أمام باب السجن وأطلقوا عليه الرصاص. . ».

وأسرعت إلى خارج، وجدت عبد الحميد ملقى على الطريق ينزف دمًا، وزوجته وهيبة تصرخ وتبكى فى حرقة. . ابتسم عبد الحميد، وقال:

- «أنا سلمتلك عليها يا دكتور. . الدكتور يسلم عليك يا وهيبة. . ».

وما هى إلا لحظات حتى فاضت روحه. .

●●●

ضد مجهول

أعترف أننى فى بعض الأحيان لا أستطيع أن أجد تفسيرًا مقنعًا لبعض انحرافات السلوك الإنسانى . . هناك تناقضات لا يستطيع المرء مهما أوتى من البراعة والعلم أن يفك طلاسمها ، ومريضى «حافظ دلال» من ذلك الصنف المحير من البشر ، لقد أحببت حافظ منذ رأيته لأول مرة ، فقد أتى إلىّ يشكو من دوار يصيبه فى بعض الأحيان ، وكان يؤكد لى أنه لا يدرى لهذا الدوار سببًا وخاصة أنه يهتم بطعامه وشرابه ، ولا يسهر كثيرًا ، ولا يدخن أو يشرب المخدرات أو الخمر . . فهو رجل مستقيم فى سلوكه بالإضافة إلى أنه لا يشعر أن به أى مرض من الأمراض . . وكان حافظ بارعًا فى إصلاح الساعات . . ولقد علمته هذه المهنة الدقة والصبر واتباع الأسلوب الشبيه بالعلمى فى تفكيره وتخطيطه . . ولاحظت أنه يشكو - إلى جوار الدوار - من ظمأ دائم ، وتبول كثير . . وقمت بفحصه جيدًا . . كان فى الخامسة والأربعين من عمره . . الحقيقة أننى أحببت هذا الرجل . . أحببت ابتسامته الحلوة . . وحديثه

اللبق . . ووجهه العريض الباش . . وعمامته الأنيقة المحبوكة . . وثيابه البيضاء النظيفة . . وآراءه الناضجة . . وعن طريق فحص البول تبين لى أن «حافظ» يعانى من مرض السكر . . وعلى الفور طلبت منه أن يذهب إلى المختبر بالمدينة ويحلل الدم للسكر . . لأن تحليل البول وحده لا يكفى . . فضلاً عن أن فحص الدم للسكر سوف يعطينى فكرة سليمة عن درجة السكر كما أوصيته كى يقوم بإجراء بعض التحاليل الضرورية الأخرى، ولم ينزعج حافظ كثيراً عندما اكتشف إصابته بمرض السكر، لقد بدا على وجهه الباسم قليل من الضيق، مر كسحابة عابرة، لكنه سرعان ما عاد إلى مرحه وخفة ظله، وأكد لى أن الأمور بيد الله، وأنه مستعد لأن يلتزم بما أراه من علاج . .

كنت أعلم أن حافظ لديه سبعة من الأولاد، وأن دخله من إصلاح الساعات لا يكفيه، ولهذا فإنه كان يزرع بعض المحاصيل فى أرضه ويشرف عليها بنفسه، كى يزيد من دخله ، فإن له أماً وأباً وإخوة وأخوات . . وبيته الكبير يبدو كمقر لقبيلة كبيرة . .

ووضعت لحافظ نظامًا خاصًا بالأكل، وأوصيته أن يكثر من الخضراوات والبروتينات مثل اللحم والبيض والسمك، وأن يبتعد ما أمكن عن النشويات أو السكريات والدهنيات، بالإضافة إلى بعض العقاقير الطبية التى لا بد منها، وكان حافظ مريضًا مثاليًا فى

طاعته للأوامر، كان يتعاطى الدواء فى أوقات محددة تمامًا كما يفعل فى أداء الصلاة لوقتها . .

وحدثت مشكلة عجيبة بالنسبة لحافظ لقد اتهم بأن زوّر فى بعض الأوراق واستولى دون وجه حق على ثمانية آلاف متر مربع من الأراضى الزراعية، وحدث صراع داخل القرية بين حافظ وأصحاب الأرض وكان واضحًا أن حافظ هو المعتدى فعلاً . . وأنه لا حق له فى هذه الأرض على الرغم من أن القضاء قد حكم له؛ وذلك لأنه قدم وثيقة موقعًا عليها بالبيع من صاحب الأرض . . وصاحب الأرض لا يعرف متى وقع على هذه الورقة . . ويعترف بأن التوقيع له . . وكان حافظ يجيئنى . . إنه يبتسم فى هدوء وإيمان وثقة . . ويحلل الأمور بطريقة ذكية . . وينكر أنه استولى على الأرض دون وجه حق . . كنت أشعر أن حديثه ينبعث من القلب، ويبدو لى أنه صادق فى كل ما يقول، لكن إجماع أهل القرية كان ضد حافظ . . هم يؤكدون أنه نصاب محترف . . مخادع . . وأنا أنظر إلى وجه الرجل . . وعمامته البيضاء . . وابتسامته الحلوة . . وتسليمه بالقضاء والقدر . . وحديثه عن الله والإيمان والرضى . . فأقع فى حيرة شديدة .

وذات مساء كنت أجلس فى مبنى المستشفى أخيط جرحًا بليغًا فى رأس أحد الأطفال، كان الطفل يصرخ ويقاوم وما كدت أضع

الجفت والإبر، حتى وجدت أمامى الابن الأكبر «لحافظ دلال» كان هذا الابن فى العشرين من عمره. . وكان صدره يعلو ويهبط بسرعة. . وأدركت على التو أنه قادم يجرى بأقصى ما يملك من قوة. . وكان يقول:

- «أبى. . أبى يا دكتور. . النجدة. .».

وتذكرت على الفور مرض حافظ. . إنه مصاب بالسكر، ترى هل أصيب بغيبوبة بسبب زيادة السكر فى الدم، أو أصيب بغيبوبة بسبب استعمال جرعة أكبر من الدواء فسبب له انخفاضًا فى سكر الدم. . إن الانخفاض الزائد أو الارتفاع الزائد فى سكر الدم قد يسبب الغيبوبة. . ولكن ولد حافظ قال وهو يبكى:

- «إن أبى ينزف بغزارة. .».

صحت فى دهشة:

قال: «لقد أطلقوا عليه الرصاص. .».

وأسرعت إلى عربيتى، وفى دقائق كنت هناك فى محل إصلاح الساعات الذى يملكه حافظ، كانت قطع الساعات منثورة أمامه. . ونظراته غاربة. . ووجهه شاحب. . لكنه كان يبتسم كعادته. . ونظرت فإذا ببضعة أماكن تنزف من صدره وبطنه. . ووجدت حافظ غارقًا فى دمائه. . قال فى صعوبة:

- «لا تتعب نفسك يا دكتور. . إن الإصابة قاتلة. . أنا أعرف. . ».

قلت فى حزن وأنا أحاول أن أضع الضمادات وأعد المصاب للنقل إلى المستشفى:

- «مَنْ فعلها؟؟؟».

وابتسم حافظ مرة أخرى، وقال فى صفاء ذهنى لا مثيل له:

- «وما قيمة ذلك؟؟ أتريدنى أن أتهم. . ثم يذهب أبنائى وأهلى لمقاضاة الجانى فى المحاكم. . وتستمر القضية شهوراً وسنوات. . ويدفعون فيها ما يملكون. . وندخل فى الدائرة المفرغة للثأر. . ؟ لا. . لا. . الحادث يجب أن يقيدوه ضد مجهول. . لقد انتهى الأمر يا دكتور. . فلأذهب فى سلام. . ».

طلبنا عربة الإسعاف، ونقلنا حافظ إلى المستشفى الصغير كى أحاول إعطاءه بعض السوائل أو أنقل له الدم. . لكنه لفظ أنفاسه فى وقت قصير بسبب النزيف الغزير. .

كنت أعجب من هذا الإنسان الغريب الذى احتفظ بصفاء ذهنه حتى النهاية والذى جعلنى أقف عاجزاً أمام تفسير سلوكه وتصرفه.

●●●

أبو البنات

يجب أن نعترف ونقرّ بأن عقلنا البشرى -مهما تقدم وارتقى- له قدرة محدودة ، إنه لون من ألوان الطاقات المختلفة التى حبانا الله بها نحن المخلوقات الحية ، قد نستطيع أن نكتشف دواء قاتلاً لنوع معين من الميكروبات ، وقد نجد وسيلة جراحية لاستئصال جزء فاسد أو مريض من جسم الإنسان ، وقد نعطى العاقر أو العقيم دواءً معينًا ليشفيها من العقم فى بعض الأحيان ، لكن هل نستطيع أن نتحكم فى نوع الجنين؟!

كان صديقنا الأستاذ «مصطفى» سعيدًا عندما رزقه الله بابنته الأولى ، ولم يتألم كثيرًا عندما رزقه الله بالبنت الثانية ثم الثالثة ، لكن عندما ولدت زوجته البنت الرابعة شعر بغير قليل من الحنق والغيظ ، لقد شعر برغبة حارقة فى أن تنجب امرأته ذكرًا بعد هذه السنوات من الزواج . . هو لا يدرى لماذا هذه الرغبة الشديدة؟؟ هل لأن مجتمعنا قد ترسبت فى أعماقه عقدة المرأة . . ثم التقاليد

القديمة والنظرة البالية لكل ما يأتى من النساء، وارتباطهن بقيم الشرف والفضيلة والطهر والعفاف، ثم العار يلحقهن إذا ما سقطن فى الرذيلة، وارتكبن حماقة من الحماقات . . أم لأن المجتمع ما زال ينظر إلى الرجل على أنه حامى الحمى، والمدافع عن الحى أو القبيلة.

ومع ذلك فلقد تظاهر الأستاذ مصطفى بالرضى والهدوء وابتسم فى وجه زوجته، وهنأها بسلامة الوضع، وقبّل الطفلة الصغيرة الجميلة، لكن دمعة أفلتت على الرغم منه . . لقد أخذ ينظر إلى الملامح الدقيقة للطفلة المغمضة العينين . . ترى ما ذنبها؟؟ إنها لم تخلق نفسها . . هكذا خلقها الله أنثى . . فلماذا يغضب مصطفى ويثور؟؟ إنه أمر خارج عن إرادته تمامًا، وخارج عن إرادة زوجته . . وعن إرادة هذه الطفلة الصغيرة الجميلة التى لا يجاوز وزنها الثلاثة كيلوجرامات.

وفكر الأستاذ مصطفى!! هل يكتفى بهذا القدر من البنات ويحدد النسل، أم يستمر حتى يرزقه الله بالولد المنتظر أو بولىّ العهد كما يسميه الأصدقاء؟؟ حسنًا . . فليستمر . . وليمنح زوجته فرصة خاصة لعلها تنجب الولد المرتقب، وطوال ذلك العام كان الأستاذ مصطفى يسأل الأطباء عن صفات الجنس، وكيف يكون الجنين ولدًا وكيف يكون بنتًا؟؟ وهل استطاع العلماء فى حياة التجارب أن

يفعلوا شيئًا يريح القلوب التعسة التى تبحث عن الابن الذى يحمل اسم أبيه ولقبه وثروته؟؟ ولم يكتف بذلك بل أخذ يبحث عن الكتب العلمية التى تتناول مثل هذه الموضوعات، وكذلك المجلات المختلفة، يلتقط منها الأخبار والتجارب الجديدة.. أصبحت هذه القضية شغله الشاغل..

ودارت به الأرض، وصرخ قائلاً: «مستحيل.. بنت خامسة؟؟ إن الأقدار لا شك تنتقم منى، أنا لم أفعل شيئًا أستحق عليه مثل هذه العقوبة»..

وأخذ يدق الأرض بقدمه المتمردة الثائرة، قالت له الحكيمة:

- «ما لها البنت؟؟ إنها الآن تتعلم.. وتنتج.. وتعمل مثل الرجل تمامًا.. وأنت؟؟ من أتت بك إلى الدنيا؟؟ امرأة.. أليس كذلك؟؟ أتريد أن تتحدى المشيئة الإلهية؟؟ حاشا لله..»

كان مصطفى فى حال يُرثى لها، ومع ذلك فقد كان يفكر كيف أن الإحصاءات العالمية تؤكد أن نسبة الرجال أعلى من نسبة النساء، فلماذا تختل النسبة فى منزله هو بالذات.. الحريم مائة فى المائة والرجال صفر.. هل كتب عليه أن يصحح الخلل الناجم فى نسبة الذكور والإناث؟؟؟ ولماذا لا تتجمع بويضات وحيوانات منوية ذات عوامل ذكورة؟؟

وعندما رزق الأستاذ مصطفى بالبنت السادسة أصيب بانهيار عصبى نُقل على أثره إلى إحدى مصحات الأمراض النفسية، حيث قضى هناك شهرًا بأكمله. وكظمت زوجته أساها، لم تكن تتكلم، كانت تضم وليدتها إلى صدرها فى حنان، وتبكى فى صمت ولا تكاد تبين..

فى المرة السابعة، لم يلق الأستاذ مصطفى بالاً لكل ما يجرى حوله، لقد بدأ له ولمن معه أن إحساسه إزاء هذه القضية قد تبلد.. لم يعد يكترث لما سيأتى أو ستأتى.. سوف يقابل الحياة وأحداثها بالسخرية والازدراء، هكذا الحياة.. إذا ركلتها ركعت تحت قدميك، وإن تعشقتها وذبت فيها حبًا أهملتك وتركتْك.. هكذا كان يحدث نفسه.

الشىء الجديد هذه المرة، أن زوجته عند الوضع أخذت تنزف.. كانت الدماء قليلة فى البداية.. لكنها أخذت تزداد.. فسارع باستدعاء الطبيب.. وتم نقلها إلى المستشفى، وأجريت لها عمليات نقل دم وإسعافات مستعجلة، لكن الأوان كان قد فات.. ماتت الزوجة.. بعد أن وضعت طفلاً ذكرًا.. ميتًا.

ونظر الأستاذ مصطفى إلى الجثتين فى عتاب.. كان شاحب الوجه مرتجف الأوصال، زائغ النظرات، وقال فى خضوع وتعاسة لا مثيل لها:

- «لماذا؟؟ لماذا تتركانى وحدى؟؟ كنت أريدكما».

وربتت على كتفه ابنته الكبرى.. وكان أخواتها الخمس يقفن إلى جوارها فى طابور صغير.. ودموعهن على خدودهن.. وهَمَّ الأستاذ مصطفى وضمّهنَّ جميعًا إلى صدره، وهو يتمتم:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون..».

وصمت برهة ثم عاد يقول:

-«كنت كالظامئ طوال حياتى.. ومع آلامى البشعة أشعر أن الله قد سكب فى قلبى الآن رضى من نوع غريب.. ولا حيلة لنا فى أمور تخرج من نطاق إرادتنا كبشر..».

●●●

التجربة

كان «سعد زهران» ضابط شرطة يشار إليه بالبنان، وكان مجال تخصصه فى شرطة الآداب، أى الاهتمام بأولئك الناس الذين يعتدون على مواصفات الشرف والفضيلة، ويشرفون على تجارة الرقيق الأبيض، وفتح البيوت السرية التى تباع فيها المتعة الحرام، والملذات الممنوعة بحكم الشرع والقانون، واستطاعت العصابات الآثمة أن توقع بالضابط سعد زهران عن طريق دفع رشوة كبيرة كى يغضى ويتساهل مع أحد المنازل السرية الموبوءة.. وحينما مد سعد زهران يده وتناول المبلغ المتفق عليه أطبقت عليه فرقة من رجال المباحث وقبضت عليه متلبسًا بجريمة الرشوة.. فذهل.. ولم يستطع أن ينطق أو يدافع عن نفسه، وإنما عرف لأول وهلة أن تجار الرقيق الأبيض قد دبروا له هذه المكيدة كى يتخلصوا منه إلى الأبد، ولكى يكون عبرة لغيره من الضباط الذين سيأتون من بعده.. إما أن يرضخوا أو تدبر لهم المكائد المشابهة.

وسيق سعد إلى السجن، ليقضى فيه عقوبة بالسجن لمدة أربع سنوات مع فصله من الخدمة، ويوم أن نطق القاضى بالحكم سقط مغشيًا عليه. . لقد أصيب بانهيار تام. . وأتى طبيب السجن كالعادة إلى مستشفى السجناء. . كان سعد راقدًا مغمض العينين. . لا يريد أن يرى أحدًا. . أو يكلم أحدًا. . أو يتناول طعامًا أو شرابًا. . كان يصيح ويردد: «أريد أن أموت. . أريد أن أموت. . »، وكان الطبيب يحقنه بالمهدئات، ويوصى الحراس بأن يلازموه حتى لا يرتكب أذى فى حق نفسه. . وفى خلال يومين أو ثلاثة خضع سعد للأمر الواقع، وثاب إلى رشده ولبس الرداء (البذلة الزرقاء المميزة)، وأخذ يتجول فى حزن وأسى عبر ممرات السجن. . والناس ينظرون إليه فى حسرة. . وذات يوم ذهب سعد إلى الطبيب مرة أخرى، وقال:

– «ارحمنى. . أنا لا أنام الليل. . أعطنى أى دواء. . أريد أن أنام. . وأن أنسى. . إن خيالها لا يفارقنى لحظة. . أنا أحبها أكثر من روحى. . إنها زوجتى. . لكن قلبى يحدثنى أنها سوف تطلب الطلاق وتتركنى. . والقانون فى صفها يا دكتور. . أتعتقد أنها تؤثرنى على غيرى بعد أن تلوث شرفى ومُرغت كبريائى فى التراب؟؟».

ووعده الطبيب أن يكتب له بعض المنومات، وقال الطبيب:

– «لماذا تحزن من أجلها؟؟ إن كانت تحبك فستبقى إلى جوارك

فى محنتك حتى تعود إليها، وإن كانت ستفر منك، فهى إذن ليست جديرة بالحزن عليها . . .».

ومرت الأيام، وبينما كان الطبيب يمر فى الإدارة رأى سيدة بارعة الفتنة ذات أناقة فائقة، تجلس إلى جوار سعد زهران، كان سعد يجلس قبالها كالطفل وكان يتمسح ويتذلل، وهى ترفع رأسها فى كبرياء وتحدّ، وكانت نظراتها لا تبعث على الارتياح . . وانصرف الطبيب دون أن يعلق بشىء على الرغم من أن سعد نهض من مكانه، وقال فى خشوع واحترام:

- «هذه زوجتى يا دكتور . . لقد حدثتك عنها . . أليس كذلك؟؟».

ولم يكد ينقضى أسبوع حتى استدعى سعد للمحكمة من جديد . . لقد رفعت زوجته قضية طلاق . . وخرج سعد إلى مصيره دون إرادة . . . الذكريات الحلوة تموج فى خاطره . . والأفكار الثائرة تتطاحن فى رأسه . . وهو بين الاثنين حائر منهوك القوى، يتعذب بالأرق المؤلم، والقلق اللعين والمستقبل الأسود . . وحكمت المحكمة بالطلاق . . وسقط سعد مشلولاً . . نعم لم يعد بقادر على أن يحرك ساقيه . . حاول أن يقف فلم يستطع . . زحف كالمقعد ليتناول طعامه وشرابه . . صرخ صرخة اهتزت لها جنبات عنبر السجناء . . وبكى الرجل بكاء مراً . . وانهرت الدموع على

خديه . . وتجمد الرعب فى عينيه . . أمسك بعنقه وحاول أن يخنق نفسه . . فمنعوه . . وأخذوه إلى الطبيب . . وفى المستشفى ارتمى على سريره كجثة هامدة .

كشف الطبيب الغطاء ، وأخذ يفحص ساقيه بكل عناية . . ويستعمل شكات الدبوس والمطرقة الخاصة بفحص الجهاز العصبى كيما يحدد مكان الإصابة فى المخ أو النخاع الشوكى ، ومن ثم يمكنه تشخيص المرض . . لأن شلل العضلات ينجم عادة عن انقطاع الرسائل الحركية العصبية خلال الأعصاب . . فليبحث الطبيب عن التشخيص وعن السبب أو المرض الذى أصاب الجهاز العصبى .

وكم كانت دهشة الطبيب عندما اكتشف أن الجهاز العصبى سليم تمامًا وليس به أى مرض عضوى . . وأمسك الطبيب بقلمه وسجل فى أوراق السجين المريض سعد زهران -شلل هستيرى- .

نعم . . إنه نوع من الشلل الذى ينتج عن بعض الأمراض النفسية أو الصدمات العاطفية . . إنه خلل نفسى ينعكس على الأعضاء بالانحراف . . فيكون أحيانًا على هيئة شلل . . أو عمى . . أو فقدان النطق . . أو صداع . . أو آلام مختلفة فى أى عضو من الأعضاء .

ونقل سعد إلى مصح نفسى للعلاج . . لكن حالته لم تتحسن . . لقد بقى هكذا ما يقرب من عامين . . حتى كادت

عضلات ساقيه أن تضمر . . بل إنه أوشك أن ينسى المشى ، وهو الذى كان يضرب به المثل فى كلية الشرطة فى سباق الجرى والمداومة على الطوابير الشاقة العنيفة . . ترى أين ذهب ذلك كله؟ . .

وصدر عفو عن السجناء . . وحملوا سعد زهران فوق نقالة خشبية إلى بيته . . ولم يدر طبيب السجن عنه شيئًا .

وعند شارة المرور الحمراء ذات مساء . . التقى سعد زهران وطبيب السجن . . كان كل منهما يركب سيارته . . وإلى جوار سعد جلست فتاة وادعة جميلة . . وهتف سعد فى لهفة :

- «يا دكتور . . انتظر عند ناصية الشارع القادم . . سوف نشرب معًا فنجانًا من القهوة . . » .

جلس الرجلان على طاولة صغيرة وانصرفت المرأة إلى إحدى المحلات التجارية المجاورة، وهمس سعد زهران :

- «لقد صارت الأمور على ما يرام يا دكتور . . إن رئاستى دبرت لى عملاً براتب مجزٍ فى إحدى الشركات . . إن غلطة واحدة لا يصح أن تدمر حياتى . . وبدأت من جديد . . تحركت ساقاى عندما علمت بنبأ تعيينى فى الشركة . . وما هى إلا بضعة شهور حتى التقيت بحبيبة القلب الجديدة . . إنها جوهرة . . . أما الزوجة الأولى فقد ذهبت مع الماضى الأسود . . » .

الجـريمة

كنت فى بداية حياتى الطبية تأسرنى المظاهر، وأكاد أصدق كل ما يقـال، الناس فى رأيى دائمًا صـادقـون، والمرضى لا يكذبون، ولذلك عندما أتى إلىَّ المضمد، وقال :

- «دكتور . . هذا رجل طيب . . إنه من أحسن العمال أخلاقًا فى المصنع كله . . ثم إنه رجل متقدم فى السن . . ولم يأتِ إليك قط ليأخذ عطلة مرضية . . . لكنه اليوم لا يستطيع العمل . . كل ما يريده ثلاثة أيام فقط للراحة . . » .

ثم نظر إلى المريض، وقال :

- «تقدم يا عبد الحميد» . .

وقمت بفحص المريض، كان يخطو فى البداية متحاملاً على نفسه، ينقل ساقيه ببطء، ووهن، والشعر الأبيض فى رأسه ولحيته ينذر بالوداع الكبير . . حاول أن يخرج صوته فلم يستطع . . كان يسعل ويئن ويتوجع . . وفحصته جيدًا فلم أجد علامات مرضية

تذكر . . اللهم إلا احتقان فى الحلقوم والعينين . . وأثر فىّ منظره . . لكننى من باب الاحتياط قست له درجة الحرارة والضغط وتسمعت صوت نفسه بالمسماع فلم أجد شيئًا يلفت النظر . . إنها إذن مجرد نزلة بردية لا أكثر ولا أقل ، ومثل هذا ما تبادر إلى ذهنى ، فلا مانع إذن من إعطائه ثلاثة أيام عطلة مرضية رحمة بشيخوخته ووعكته الصحية ، واستجابة لرجاء مضمدى الذى يساعدنى فى عملى . . ومرت ساعتان كنت لم أزل جالسًا فى عيادتى بالمصنع والعمال المرضى يتوافدون واحدًا تلو الآخر ، وأنا أفسح لهم صدرى ، وأستمع إلى استفساراتهم فى أناة ، وأحاول جاهدًا أن أريحهم . . إن أغلبهم لا يعانى من أى مرض ، لكنهم يرغبون دائمًا فى الحصول على عطلات مرضية ، أو عقاقير مقوية أو منشطة ، وأنا أبشر بينهم بفضيلة الصبر ، والمثابرة على العمل ، وأؤكد لهم أن صحتهم على ما يرام . . إن الطبيب فى مثل هذه المواقع يجب أن يكون جسمانيًا ونفسيًا ومصلحًا اجتماعيًا فى الوقت نفسه .

وسمعت أحد العمال المرضى يقول :

– «لقد اعتقلت الشرطة العامل عبد الحميد ، وساقوه إلى السجن . . »

لم أكترث لما سمعت ، فأنا لم أتذكر مَنْ عبد الحميد هذا ، ولا

أعرف شيئًا عن ظروفه، لكن الارتباك ساد المضمد، فارتجفت ساقاه، وهتف فى رعب:

- «لماذا؟؟».

فقال العامل المريض:

- «ألا تعلم؟؟ إنه متهم فى جريمة قتل..».

وشحب وجه المضمد، واغرورقت عيناه بالدموع واتجه صوبى، وقال:

- «أنا برىء يا دكتور.. والله الذى لا إله إلا هو لم أكن أعرف عن ظروفه شيئًا عندما أتى إلى هنا لأخذ الرخصة».

قلت وأنا أحاول أن أتذكر:

- «رخصة؟؟ ماذا تقصد؟؟ إننى لا أفهم شيئًا مما تقول..».

قال المضمد:

- «إن عبد الحميد هذا قد أتى إلى هنا منذ ساعتين.. ونال رخصة مرضية لمدة ثلاثة أيام.. هل نسيته.. إنه ذلك الرجل العجوز الذى كان يتوجع..».

عندما سمعت هذه الكلمات، دارت بى الأرض.

لا شك أننى سأكون ضمن من سيسألون.. وداخلنى خوف من

نوع غريب . . وذهبت مع زميلى الطبيب الشرعى إلى حيث توجد جثة القتيل .

ماذا وجدنا؟؟

بضعة كئوس فارغة . . وزجاجتين من الخمر بهما بقايا . . وسيجارة منطفئة . . وغرفة مملوءة بالدخان . . وأنبوبة بوتاجاز غير محكمة الإغلاق . . وكان واضحًا أن القتيل مات مخمورًا من أثر انسياب الغاز وإغلاق الغرفة بإحكام . . وكان السؤال من الذى ترك الأنبوبة فى هذه الحالة ، ومن الذى رافق الضحية خلال هذه الليلة . . وكان عبد الحميد هو والد زوجة القتيل أى صهره . . والجميع يعرفون أن بينهما خلافات عائلية . . وأن عبد الحميد أراد تطليق ابنته من زوجها القتيل منذ أسابيع فلم يرضَ الزوج . . وأنكر عبد الحميد صلته بالحادث ، وقال إنه لم يرَ القتيل منذ ثلاثة أيام ، ثم أخبر عبد الحميد بأنه مريض ولا يستطيع أن يقاوم أو يقتل أو يشهد بشهادة الطبيب . . أى بشهادتى أنا .

فى الواقع أنا لم أكن مقتنعًا علميًا بمرض عبد الحميد ، لم أجد فيه دليلاً يذكر على أنه مريض ، وعندما استدعتنى النيابة لإبداء رأيى أحضرت معى البطاقة الصحية لعبد الحميد . . وأريتهم نتيجة الفحص . . إن ضغطه وحرارته وصدره وقلبه كلها فى حدود الطبيعى . . وأكدت مائة فى المائة أن حالته الصحية لا تمنع من

ارتكاب أية جـريمــة، وأنه قــادر على العــمل، وأن العطلة التى أعطيتـها له كانت مجرد راحة خوفًا من حدوث مضاعفات من نزلة البـرد الخـفـيف بالنسـبـة لرجل كـبيـر السن مـثلـه. . هذا كل مـا فى الأمـر. . إن المصـاب بنزلة البـرد يستطيع أن يطلق الرصـاص، وأن يشرب الخمر. . وأن يفتح ويغلق أنبوبة البوتاجاز. . هذا ما قلته ووقعت عليه بإمضائى.

وأحدثت القضية ردّ فعل كبير فى أوساط المدينة السكنية للعمال الذين يشـتـغلون فى مـصنع الحـديد والبـرادة واللحـام، وتناقلت الهـمسـات تفاصيل كل شىء. . كل شىء عن الزوجة اللعوب. . وعن أبيها العربيد العـجوز. . وعن رفاق السوء الذين طمعوا فى جمـال المرأة الفاتنة. . وعن الزوج القتيل. . ذلك الشاب المسكين الضـعـيف الشـخـصـيـة. . الذى كـان يتـحـرك بإرادتهم ويسـتـمع لأوامرهم. . إلاّ فى شىء واحد وهو طلاق زوجته.

وأسفـرت دراسـات الطبيب الشرعى عن وجود بصـمـات لعـبد الحميد على الكئوس الفارغة وعلى زجاجة الخمر، وعلى مفتاح أنبوبة البوتاجاز وعلى أعقاب السجائر الملقاة فى أرضية الغرفة. . ولم يستطع عبد الحميد أن يفسر للقضـاة السبب الذى جعله ينكر وجوده مع صـهره فى تلك الليلة، ولا السـبب الذى جـعله يعبث بمفـتـاح أنبـوبة البـوتاجـاز. . وانهـار العـجـوز العـربيـد، واعـتـرف

بجريمته كاملة حسبما تصورها الطبيب الشرعى ورجال الشرطة.

وعدت إلى مضمدى أسأله: «أرأيت ذلك المسكين الذى عطفنا عليه؟؟».

سدد المضمد نظرات خجل صوب الأرض وهمس: «سامحنى يا دكتور..».

أما أنا فمنذ ذلك التاريخ وأنا أحاول أن أنحى عواطفى جانبًا.. وأن أحكم منطق العلم دائمًا فى كل ما أرى.. إنه درس لا يُنسى.



أينَ وَلَدى؟؟

نحن فى عصر العلم والتخصص، هذه حقيقة لا مراء فيها، حتى فروع المعرفة انقسمت إلى فروع أصغر فأصغر، ويا ويل من يتصور أن هذه الأمور ترهات ومبالغات.. عندئذٍ ينتقم منه العلم بلا رحمة.. الحادثة التى سوف أرويها لكم جرتْ فى بلدة اسمها «سرس الليان» كان الدكتور أحمد جراحًا ذا شهرة واسعة فى تلك المنطقة.. وكان أحمد يجرى العمليات الجراحية فى سهولة ويسر وفى وقت قصير، الجميع يعرفون أنه يستطيع أن ينتهى من استئصال الزائدة الدودية فى بحر ثلث أو ربع ساعة.. والمريض لا يبقى فى مستشفاه الخاصة سوى أسبوع.. والجرح الذى يشقه فى البطن لا يزيد عن بضع سنتيمرات قليلة.. أى أنه يراعى النواحى الجمالية فى جراحته.. وكان معاونه مضمد (أو تومرجى) اسمه بيومى من أهل البلدة.. وعلى الرغم من أن بيومى كان قليل الثقافة، لا يعرف سوى النادر البسيط من العلوم العصرية، إلا أنه قضى مع الدكتور أحمد ما يقرب من عشر سنوات، وفهم ما يجب عليه

عمله، وكان الدكتور أحمد مرتاحًا إليه لسبب آخر، وهو أنه يحسن التفاهم مع المترددين على المستشفى من أهل منطقته. . وعلى الرغم من تواضع معلومات بيومى إلاّ أنه أباح لنفسه أن يمارس بعض الأعمال الجراحية البسيطة. . مثل فتح الدمل. . أو عمليات الختان. . أو خياطة بعض الجروح البسيطة دون تصريح بذلك من الجهات الرسمية.

عاد بيومى ذات مساء إلى زوجته، وصاح فى حنق بالغ:

- «أنا تعس الحظ. . إن الطبيب يأخذ عشرين جنيهًا فى العملية الجراحية التى لا تستغرق أكثر من ثلث ساعة. . تصورى يا امرأة. . أين إذن العدالة فى هذه الدنيا. . ».

قالت الزوجة:

- «احمد الله يا بيومى. . لا تنسَ أن الطبيب قضى فى كلية الطب أكثر من سبع سنوات. . وأن مجمل سنوات تعليمه قد تصل إلى عشرين عامًا. . أما أنت فلم يتجاوز تعليمك سوى عام أو عامين فى مكتب القرية. . ».

كانت زوجه تعلم أنه جشع ويحب المال، وكان يخدع السذج والبسطاء من أهل القرى المجاورة ويأخذهم إلى بيته، ليعطيهم إبرة أو حقنة تذهب عنهم المغص الكلوى أو المعوى، أو يكتب لهم

بعض العقاقير المقوية للجنس والتى يدخل فى تركيبها بعض الهرمونات، لم يكن يكترث للمضاعفات الخطيرة التى قد تنجم عن استعمال هذه العقاقير دون دراية كافية . . وكانت بعض أنباء هذه التصرفات تبلغ مسامع الطبيب الذى كان يكتفى بتوجيه النصح إليه دون أن يعاقبه . . كان الطبيب يعرف أن لبيومى تأثيرًا كبيرًا على أهل البلدة والقرى المجاورة، وبيومى يستطيع -لو أراد- أن يسىء لسمعة الطبيب، وينشر من حوله الأكاذيب والدعايات السيئة . . كان كل منهما فى حاجة للآخر . . فانعقدت بينهما هدنة من نوع صامت طويل . . وقبل الطبيب بيومى على علاته، مع إحساسه العميق بأن السكوت على بعض تصرفات بيومى يعتبر خطأ فادحًا . . ومع ذلك فقد كان الطبيب يؤمن بأن ما من سبيل سوى التفاهم والحلول السلمية بينه وبين ممرضه .

عاد بيومى مساء فى يوم جمعة إلى بيته ليجد ابنه الأكبر البالغ من العمر أربعة عشر عامًا يتلوى من شدة الألم، وصاحت زوجته :

- «انقذ الولد يا بيومى . . خذه إلى الدكتور أحمد . . » .

قال بيومى وهو ينظر إلى ولده الشاحب الوجه، الدامع العينين :

- «وأنت تعرفين أن الدكتور يقضى يوم راحته فى المدينة مع أسرته . . » .

- «فلتدق التليفون له، وهو إنسان طيب، ولن يتأخر عن نجدتك، أو فلتتصل بأى طبيب آخر. . أو خذ الولد إلى المدينة. . أو المستشفى القريب».

واتجه بيومى صوب ولده وأخذ يتفحصه. . نعم. . الصورة مطابقة تمامًا للالتهاب الحاد للزائدة الدودية. . آلام شديدة فى الجهة اليمنى من البطن. . قىء. . ارتفاع بسيط فى درجة الحرارة. . وبيومى يضع يده ويضغط فى الجهة اليمنى فيصرخ ولده من الألم. . لا يوجد لدى الولد إسهال أو إمساك. . وابتسم بيومى وأشعل سيجاراً.

- «اسمعى يا امرأة. . ابننا مصاب بالتهاب حاد بالزائدة الدودية. . إنها عملية بسيطة لا تستغرق أكثر من ثلث ساعة. . ».

ووثب فى مكانه فى خفة غير معهودة، وأخذ يجمع بعض الآلات الطبية من مقصات وملاقط ومباضع (مشارط) وإبر ويضعها فى إناء فوق النار، وأخذ يبحث عن المخدر.

قالت زوجته:

- «ماذا ستفعل؟؟».

- «اغلقى الباب يا امرأة. . كل شىء سوف ينتهى فى خلال نصف ساعة. . . سوف أجرى الجراحة بنفسى».

قالت وهى تترنح، وتنظر إلى ولدها فى رعب:

- «إنى خائفة يا بيومى».

صرخ فى غضب:

- «هذا الخوف سيدمرنا.. يحب أن أفعل شيئًا.. وسأنقذ ولدى».

ثم قال فى دهاء:

وسأوفر على نفسى المصروفات الكثيرة.. وستتحدث البلدة كلها عن بيومى.. وسأثبت لك أن مهارتى فى الجراحة لا تقل عن مهارة الدكتور أحمد.

حقن بيومى المخدر (البنج) فى وريد ابنه.. نام الصغير بعد أن عدّ واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة... ووضع بيومى قطعة من القطن على فم ولده وأنفه.. وأخذ يرش من أنبوبة المخدر.

- «ساعدينى يا امرأة.. خذى هذا المخدر ورشى.. إن كل شىء يمضى على ما يرام..».

وأمسك بيومى بالمبضع (أو المشرط).. وفتح فتحًا طوليًا قصيرًا فى بطن ولده.. بعد أن سمى بسم الله الرحمن الرحيم وقرأ الفاتحة وآية الكرسى.. وأخذ بإمعاء الصغير حتى وجد الزائدة الدودية..

كـان يجـفف قطرات الدم حـتى يخـيط ويـربط . . وفى مـدى نصف الساعة انتهى بيومى من الجراحة . . وتمتم :

- «حالاً سيفيق . . لقد نجحت . . أنت لا تعرفين من أنا؟؟» .

وطال الانتظار . . حاول بيومى أن يوقظ ولده فلم يستيقظ . . وصاحت الأم ملتاعة حزينة :

- «ولدى . . ولدى . . لقد قتلت ولدى» .

وابتسم بيومى فى بلاهة :

- «لماذا لا يستيقظ . . لقد أديت العملية على أكمل وجه . .» .

ثم اقترب من ولده ثانية . . وأمسك بكتفه ، وأخذ يهزه فى عنف ويقول بصوت يجرحه البكاء :

- «استيقظ . . يجب أن تستيقظ» .

ثم انفجر باكيًا وهو يصيح بأعلى صوته :

- «لقـد مـات ولدى . . الحـقـونى . . أحـضـروا أطبـاء البلد أجمعين» .

وأخذ يلطم وجهه كامرأة . . ودموع الجيران تسيل فى صمت .

●●●

الرجل القوى

كان وجهه يبدو محتقنًا بصورة تكاد تكون دائمة، وكان يثور ويتوعد ويعاقب لأتفه الأسباب، إنه «مختار البلدة»، يتمتع بسلطة مطلقة منذ سنوات، ولقد ورث هذه السلطة عن أبيه وأجداده، وأهل البلدة الفقراء لم يكن فى استطاعتهم أن يقاوموه، أما الأغنياء فقد خافوا من بطشه وانتقامه فداروه أو استسلموا له، كان الجميع يدفعون له ما يفرضه عليهم من مال وإتاوات، وكانوا يؤيدون رأيه على الرغم منهم. . وعاش هكذا سنين عديدة، لكن الأمور أخذت تتبدل وتتغير مع العصر الذى يتبدل ويتغير. . هذه الأشياء لم تكن فى صالح مختار القرية «عبد الوهاب سليمان». . لقد تعلم الناس كيف يرفعون شكاواهم إلى المسئولين، وأخذوا يرفضون له بعض الطلبات، وتجرأوا وشهدوا ضده فى بعض قضايا الرشوة والإتاوات المفروضة. . وسيق إلى القضاء. . كاد يجن. .

وذهب عبد الوهاب إلى الطبيب. . وجلس بين يديه كطفل مستسلم مطيع. . وتمتم المختار:

- «أنت الوحيد يا طبيب الذى لا أشعر أمامه بعار الضعف . . إننى أعترف أمامك بكل شىء . . لا شك أن فيك سرًا إلهيًا . . » .

ابتسم الطبيب فى احترام لشعره الأشيب، ومكانته الاجتماعية المعروفة، وقال :

- «أنا طبيبك . . ومأمن سرك . . » .

أمسك الحاج عبد الوهاب برأسه، وقال :

- «إن الأمور لا تسير على ما يرام . . رأسى يكاد ينفجر . . الصداع يهدنى هدًا . . أنا عاجز عن النوم . . فشلت الأدوية المسكنة . . إن قلت لك إننى تناولت ما يقرب من نصف كيلو أسبيرين على مدار الشهر فلن تصدقنى . . لم أعد أستطيع أن أركز . . أشعر بضوضاء فى أذنى . . أقول لك الحق . . لقد كرهت الحياة والناس والتجارة . .

استمع إليه الطبيب فى حرص، كان يزن كلماته بميزان دقيق . . ثم قام الطبيب ليفحصه . . وهمس المختار فى أذنه مضيفًا : «ومن المخجل إننى لم أعد أصلح كزوج فى أغلب الأحيان . . » .

وكم كانت دهشة الطبيب عندما تبين أن ضغط الدم لدى الحاج عبد الوهاب مرتفع جدًا . . إن الضغط الانقباضى بلغ أكثر من مائتين والانبساطى مائة وخمسة وعشرون، إنها إذن حالة ضغط دم

مـرتفع . . وهى السـبب فى الصـداع والأرق وضـوضـاء الأذنين والدوخة (أو الدوار) الذى يعانى منه الرجل.

وأخـذ الطبيب والمختـار يتـدارسـان الوضع الصـحى، وأدرك المريض أن حياة الانفعـال والتوتر والغضب التى يعيشـها لهـا أوثق الارتباط بما آل إليه من انهيار فى صحته . . إن المعارك التى يخوضها هى التى رفعت ضغط دمه، والقلق على المصير والمال والسلطة كلها تآزرت فى العبث بشرايينه وقلبه . . إن المختار لأول مرة فى حياته يواجـه عـدواً من نوع جـديد، عـدواً لا يمكن القـبض عليـه أو وضع الأغلال فى يديه أو القيود فى رجليه . .

واحتقن وجه المختار أكثر وأكثر، وقال فى غضب:

- «لقـد انتـصـرت على أعـدائى طول حـيـاتى . . اليـوم يثيـرون أعـصابى، ويتـسـببـون فى إمراضى . . إنـها جريمة قتل يرتكبونها فى حقى . . ».

ثم لوح بيده فى عصبية، وقال:

- «سوف أقتل كل من يعكر دمى . . ».

ربت الطبيب على كتفه وتمتم:

- «أنت فى حاجة ملحة أولاً إلى مصالحة بينك وبين نفسك . . ».

التفت إليه المختار فى دهشة، وقال:

- «كيف؟؟».

قال الطبيب:

- «إننى أوصيك بترك التجارة.. وأوصيك بترك منصبك.. وأوصيك بـ..».

فصرخ المختار فى حدة، وقال:

- «هل جننت مثلهم؟ الحاقدون والحاسدون يتجنون علىّ، ويكتبون العرائض والشكاوى ضدى.. ولم يستطيعوا مهما فعلوا أن يزحزحونى من موقعى.. إنه لعار كبير أن أستسلم لهؤلاء الرعاع.. هذا حقى وحق أجدادى من قبلى..».

لم يكترث الطبيب لما قال، وإنما استطرد قائلاً:

- «ولا بد من نظام غذائى معين تبتعد فيه عن جزء كبير من ملح الطعام والأشياء المالحة.. ولا بد من تعاطى الدواء بانتظام.. وإلا..».

قاطعه المريض قائلاً:

- «وإلا ماذا؟؟ هه.. وإلا مت.. هذا ما تريد أن تقوله.. إننى أعرف كيف أداوى نفسى.. أعرف كيف أؤدب المارقين.. يقولون إن هذا العصر ليس عصرى.. لقد كذبوا.. أنا سيدهم.. وأبى سيد آبائهم.. ولم أستسلم وسأضرب بشدة.. ولن أتهاون.. وعندما أقضى على كل أعدائى سوف أنال الشفاء..».

وقام الطبيب ليحضر بعض العقاقير المهدئة والمخفضة لضغط الدم، وخاصة أن الانفعال الذى سيطر على مريضه قد سبب له دون شك مزيداً من الارتفاع، واقترب به من منطقة الخطر . .

لكن المختار أشعل سيجارة، وجفف عرقه، وأزاح زجاجات الدواء والمحاقن جانبًا، وابتسم فى انفعال واضح، ابتسامة مصطنعة، وقال :

- «أشعر أننى بخير الآن . . ولا تقلق على . . كل ما أريد أن أقوله هو ألا تتأثر بكلام هؤلاء الشباب الفاسدين الذين يزعمون ويرددون دائمًا أن هذا العصر ليس عصرى . . أنا أقوى منهم ومن عصرهم . . وسأنتصر عليهم كما انتصرت آلاف المرات . .

فى منتصف الليل سمع الطبيب صراخًا عاليًا ملتاعًا، وأتى من أخبره بأن مختار البلدة قد سقط مغشيًا عليه، ولم يضيِّع الطبيب وقتًا فقد أسرع إلى هناك يتقدمه رتل من الحراس حاملى السلاح . . . كان المختار راقدًا على فراشه . . وغطيطه ينبعث عاليًا ونصفه الأيسر مصاب بالشلل التام . . لقد ارتمى كثور ذبيح . . ولم يكن من الصعب على الطبيب أن يشخص الحالة . . إنها انفجار فى شرايين المخ . . وأشرق الصباح . . ومع نسماته الأولى فاضت روح المختار إلى بارئها . .

●●●

في ظلال الحب

من ضمن قسم أبيقراط الذى يقسمه الطب عبارة خاصة بالمحافظة على أسرار المرضى، وعدم إذاعتها إلا تحت ظروف وشروط معينة، إن أسرار الناس شيء مقدس، وهى تتعلق أحيانًا بأمن الناس وسعادتهم ومستقبلهم . . كانت «بهية» فتاة جامعية من إحدى الدول الشقيقة، ولم أكن أعرفها إلا من صورتها . . حيث التقت بشقيقى فى أحد معسكرات الطلبة العرب فى الصيف . . وربطت بينهما صداقة وطيدة . . وفوجئنا ذات يوم بمجيء بهية إلى العاصمة . . كنت أراها لأول مرة . . لفت نظرى عيناها الجميلتان ونظراتها الحزينة . . كانت سمراء فاتنة تضع على رأسها شالاً أبيض . . وبعد القيام بواجبات الاستقبال نحو ضيفة عزيزة قادمة من وطن شقيق . . جلسنا نتحدث فى هدوء . . لاحظت أمرًا غريبًا . . كانت «بهية» تحاول جاهدة أن تخفى وجهها تحت الشال الأبيض . . قلت فى نفسى : إنها تحاول أن تعتصم بالحشمة . . لكن أية حشمة وهى تلبس نصف كم . . وفستانها يصل إلى الركبتين . .

ولم أكترث للأمر كثيراً . . لأن لبعض البلدان عادات معينة . . وفى المساء أتت شقيقتى إلىّ وهمست قائلة :

- «أتدرى لماذا أتت بهية»؟ .

قلت : «لا» قالت : «حسنًا إنها تريد أن تعرض نفسها على أستاذ كبير فى الطب . .

وأخذت شقيقتى تشرح لى مأساة بهية . . إنها برغم جمالها وثقافتها ورقتها تعانى من أمر يقلقها أشد القلق، إن الشعر ينمو فى ذقنها . . وفوق شفتها العليا . . وفى صدرها . . إنه أمر غريب يسبب لها تعاسة قاتلة . . ويؤثر على سلوكها ومزاجها . . وتريد أن تفعل أى شىء . . أى شىء لكى تتخلص من هذا المرض الغريب . . تذكرت الشال الأبيض، وحرص بهية على حبكه على رأسها ووجهها . . يا لها من مسكينة . . .

وفى اليوم التالى قالت بهية :

- «إن هناك فتى جامعيًا يسكن وسط المدينة وأنا أراسله منذ سنوات . . بمحض المصادفة . . ومن خلال إحدى المجلات تعرفت على شخصيته وحياته دون أن أراه . . عرفته أكثر من خلال المراسلات . . وأريد أن أراه بأى شكل . . قطعًا سوف يفاجأ بوجودى» .

وشعرت بشيء من الحرج وأنا أصحبها إلى الشارع من شوارع وسط المدينة . . تأملتها . . كانت الشعرات المتناثرة في ذقنها . . وفي مكان الشارب يا إلهي!! كان الله في عونها . . وتساءلت بيني وبين نفسي . . لماذا تركت هذا الشعر دون أن تتخلص منه؟؟ وفهمت من شقيقتي فيما بعد أنها فعلت ذلك ليراه الطبيب المختص على الطبيعة . .

كان لقاء «بهية» مع فتاها الجامعي لقاء حافلاً بالمشاعر الطيبة . . الغريب في الأمر . . أن هذا الشاب اتضح أنه صديق لي منذ سني الدراسة بالجامعة، وقد تخرج حديثًا من كلية الزراعة . .

وفوجئت في اليوم التالي أن صديقي «فريد» المهندس الزراعي يأخذ رأيي في موضوع الزواج من بهية . . لم أكن أتوقع أمرًا كهذا . . ولم أفكر فيه قط . . فهما لم يلتقيا إلا منذ يوم واحد . . وهناك أمر المرض الذي تعاني منه بهية . . أنا أعرف صديقي فريد إنه متسرع كثيرًا . . وقد يتغير رأيه بعد فورة الحماس التي انتابته . .

وأخذت بهية إلى اختصاص الغدد . . وفهمت منه أن نمو الشعر راجع إلى بعض الاضطرابات الهرمونية، وإلى حساسية زائدة في بصيلات الشعر للهرمونات . . ولم يخف الطبيب أمر صعوبة علاج مثل هذه الحالات . . وضرورة عمل فحوصات دقيقة وباهظة التكلفة . . وقد يحتاج الأمر لجراحة استكشافية في البطن .

كانت بهية متلهفة على إتمام العلاج بأى شكل . . خيل إلى أنها على استعداد للتضحية بنصف عمرها من أجل الخلاص من هذا الداء . . كانت تعانى من آلام نفسيه بشعة . . وكانت أيضًا تحب فريد . . قصة حب بدأت خيالاً عبر السطور من بلد إلى بلد . . وعبر الأحلام الوردية التى تمتزج بآمال الشباب فى سن معينة . . وفكر الطبيب الاختصاصى أن يقتلع لها الشعرات الموجودة فى الوجه بطريقة الكى الكهربائى . . كنت مشغولاً بموضوع بهية لأبعد مدى . . وذات يوم جاءت وقالت لى وهى تطأطئ رأسها فى خجل :

- «أرجو ألا تخبر فريد عن مرضى» .

قلت فى ثقة وتأكيد :

- «حاشا لله . . نحن الأطباء لا يصح أن نفشى سر أحد» .

تنهدت فى ارتياح . . وابتسمت فى سعادة . . وتألقت الفرحة فى عينيها الجميلتين . . ثم نظرت إلى السماء قائلة :

- «أريد أن أتزوجه . . إننى أحبه . . » .

وطال بقاء «بهية» فى العاصمة ، وأجريت لها بعض الفحوص المهمة ، كما أجريت لها العملية الجراحية الاستكشافية ، كانت حالتها كأنثى مطمئنة تمامًا . . ودأبت بهية على التخلص من الشعر

بالطرق الشعبية المعروفة . . كما ساعدها الطبيب فى العلاجات التى اقترحها وسافرت بهية فى نهاية الصيف لاستكمال السنة النهاية بكلية البنات .

وفرقت بيننا الأيام . . .

ومرت سنوات . .

وفى عام ١٩٧١م سافرت لقضاء فريضة الحج . .

وفوجئت به يطوف حليق الرأس حول الكعبة فى البيت الحرام . . وتعانقنا . . إنه صديقى فريد . . وأشار بيده إلى الخلف قائلاً :

- «زوجتى الحاجة بهية . . » .

ونظرت إليها فى دهشة . . كان وجهها يفيض بالسعادة والرضا . . وأردفت هى قائلة :

- «أهلاً بك . . . وهذا هو ولدنا بهاء الدين . . » .

وانتابتنى مشاعر مختلطة جعلتنى أبدو مرتبكًا بعض الشىء .

وأسرعت بهية قائلة :

ولدينا أيضًا بنتان جميلتان . . لا شك أنك سوف تأتى لتراهما فى فندق الحرمين . . » .

فى المساء قلت للحاجة بهية :

- «كيف حالك؟؟» .

قالت :

- «نحن سعداء معًا . . زوجى رجل مخلص . . وأنا لم أخفِ عنه شيئًا . . » .

لقد تحسنت حالتى بعض الشىء . . الشعر أقل كثيراً عن ذى قبل . . لكنه لم يعد مشكلة بالنسبة لى . .

وفهمت السبب . . إن زوجها يحبها . . إنها ترى من خلاله الدنيا كلها . . حتى نفسها تراها من خلاله . . وحبه لها قد خفف الكثير من أزمتها النفسية . . إنها تحيا سعيدة معه . . وكفى .

●●●

الزوجة الثانية

الحاج حسين رجل من أهم رجال القرية، لو عددنا الرجال العشرة البارزين فيها، لكان الحاج حسين يحتل مكانة بينهم، إنه رجل مهزار شديد الثقة بنفسه، قوى البنية، كثير المغامرات، يتحدث كثيراً عن ماضيه الحافل بالأحداث، وعن البطولات التى ينسبها إلى تاريخه، إنه يؤمن أن الحياة لم تخلق إلا للمرح والاستمتاع، وكان آخر المغامرات زواجه من امرأة تصغره فى العمر بما يقرب من ثلاثين عامًا.. هو فى السبعين.. وهى فى الأربعين.. هذا الزواج أثار ضجة كبيرة فى أوساط الأسرة.. لأن الحاج حسين له خمسة من الأبناء الكبار، وكل واحد منهم له أبناء وبنات.. والذى آثر الضجة أن الحاج حسين كان قد أنجب من الزوجة الجديدة ولدًا.. ثم ثانيًا.. ثم بنتًا ثالثة.. لقد حدث اضطراب كبير، وذلك بسبب توزيع تركة الحاج حسين التى كانت قد وزعت على أبنائه أثناء حياته.. إن الأبناء الجدد سوف يكون

لهم نصيب . . والأبناء القدامى ثاروا . . وقاطعوا أباهم . . ورموه بالخرق والتصابى والفساد . . بل قال واحد منهم غليظ القلب . . ليت أبانا قد مات قبل أن يفعل هذه الفعلة الشنعاء . . وأخذ الأبناء يسيئون إلى أبيهم ظلمًا وعدوانًا . . ووقع الحاج حسين مريضًا . . كان يصاب بحالة من ضيق التنفس . . كانت هذه الحالة قاسية عليه . . إنه يجد صعوبة كبرى فى أن يلتفظ أنفاسه . . ويجد صعوبة فى أن ينعم بالنوم كما كان يحدث فى الماضى . . وفقد الكثير من الشهية للطعام . . أصبح أدنى مجهود يسبب له اللهاث والعرق . . وهنا تذكر أنه يعانى من الشيخوخة . . وزوجته الجديدة تربت على رأسه وتدعو له بالسلامة والشفاء . . إن عطفها عليه يضايقه . . يشعره بالعجز ، ويذكره بأنه دون شبابها وقوتها وحيويتها بكثير . . ولأول مرة يشعر بالندم . . ليس هناك تناسب بينها وبينه . . إن السنوات السبعين تثقل كاهله . . لكن سنوات زوجه الأربعين تجعلها فاتنة . . خفيفة الحركة . . رشيقة القوام . . تكاد تطير كالحمامة . .

وجاءوا له بطبيب القرية فقال : «هذه حالة ربو . . » .

وأعطاه علاج الربو مرارًا وانصرف .

إن التحسن كان بطيئًا جدًا .

والحاج حسين يعانى من حيرة قاتلة، ويأس مرير . . وأولاده يدعون له بالراحة الكبرى . . بالموت . . قبل أن ينجب طفلاً رابعًا من زوجته الأخيرة . .

ونُقلت أنا للقرية التى فيها الحاج حسن .

فى اليوم الثانى قال لى الممرض :

- «يجب أن تعمل عملاً عظيمًا فى البداية . . إذا نجحت فى علاج إحدى الحالات المستعصية، فسيكتب لك النجاح هنا وإلى الأبد . . وستكون الحالة الأولى التى ستراها هى حالة الحاج حسين . . » .

وأعطانى المضمد فكرة عن الحاج حسين، مَنْ هو؟؟ ما هو ماضيه؟؟ ثم نبذة بسيطة عن مرضه، وقلت للممرض، إن بعض حالات الربو قد لا تشفى إطلاقًا، وأسباب الربو أو ضيق التنفس أو «الضكة» كما يسميها العامة أسباب كثيرة متنوعة . . منها ما يتعلق بالشعب الهوائية . . ومنها ما يتعلق بأمراض الحساسية . . أو الأمراض النفسية . . أو الالتهابات عمومًا، ومنها ما يتصل بالقلب نفسه . .

وهمست فى أذن الممرض :

- «إنك تضعنى أمام امتحان صعب، وكان أولى بمثل هذا الرجل أن ينقل إلى الإخصائى فى المدينة المجاورة . . ».

قال المضمد :

- «اعلم يا طبيب أن الحاج حسين لا يريد أن يراه أحد وهو على هذه الصورة . . ويأنف من أن يسير متكئًا على أحد، أو محمولاً على نقالة . . إنه يفضل الموت على ألا يراه أحد على تلك الصورة . . ».

قلت للمضمد :

- «لكن قد يحتاج لفحوصات مختبرية . . أو لأشعة على الصدر أو التخطيط للقلب، وهذا كله غير متيسر هنا . .

هز المضمد كتفه فى حيرة، وقال :

- «لا بد أن تراه . . ».

●●●

عندما وصلت إلى الغرفة التى ينام فيها الحاج حسين وجدت وجهه مكفهرًا ساخطًا، كانت عيناه ترمقان كل شىء فى حقد وغيظ . . وكانت زوجة الأخيرة تقف إلى جاوره خالية من أية مساحيق للتجميل . . لكنها كانت فائقة الفتنة والجمال، واسعة

العينين، حزنها من ذلك النوع الغريب المستسلم. . ترى أين مزاح الحاج حسين ومرحه؟؟ لعنة الله على المرض. .

وصاح الحاج حسين فى صرامة:

- «اخرجى يا امرأة . . ألا تستحين. . ».

طأطأت رأسها وانصرفت في هدوء. .

كان صدره يعلو ويهبط. . وعيناه قلقتين حائرتين. . كأنه يتوسل إلىّ أن أفعل شيئًا. . أخذت أفحصه بكل دقة وعناية بعد أن سمعت قصة مرضه. . فحصت رئتيه وقلبه وضغطه ونبضه. . وأعصابه. . وساقيه وبطنه. . وخرجت بانطباع ألا وهو أن سبب ضيق التنفس الذى يعانى منه وهو هبوط القلب. . إذن فالعلاج هنا يختلف عن علاج الربو الذى نعرفه. . إن الربو العادى نعالجه بإعطاء العقاقير التى توسع الشعب الهوائية، أو الأدوية المضادة للحساسية أو مضادات الالتهابات. . أما هنا فالوضع يختلف. . وفكرت على الفور فى إعطاء علاج التنفس من تلقاء نفسه. . ولن يكون هناك ربو على الإطلاق. . هذا بالإضافة إلى العلاجات الأخرى.

●●●

فى أيا م قلائل تحسنت صحة الحاج حسين . .

أخذت ضحكاته تجلجل فى أنحاء البيت وفى الشارع . .

وأخذ يمشى فى أنحاء القرية ومعه عصاه العاجية، ومسبحته السوداء، وقال أحد أبنائه الكبار لباقى إخوته :

– «أبشروا . . لقد شفى الله أباكم على يدى الطبيب الجديد . . انتظروا الطفل الرابع قريبًا . . » .

وبعدها أصبحت طبيب القرية المفضل . .

●●●

حمامة

كان حمدى عبد الغفار يعمل مدرسًا بإمارة الفجيرة منذ تسع سنوات، إنه يعيش في ذلك المكان فى ألفه مع عمله، ومع ذكرياته الأليمة عن وطنه المغتصب فلسطين. . وجاءته ابنته تقول:

- «بابا. . إن أمى تبكى. .».

إن حمدى يعرف. . زوجه حامل فى الشهر التاسع، وهذه آلام المخاض إنه ينتظر ذلك منذ أيام، إنه يشعر بالغربة والوحدة. . ويشعر تبعًا لذلك بالقلق من جراء أى حادث يقع. . دائمًا يخاف المستقبل. . ومع ذلك فهو يتوكل على الله. . وأسرع بحمل زوجه فى سيارة لاندروفر ونقلها إلى أقرب مستشفى في ذلك الوقت وهو مستشفى خورفكان. .

فحصها الطبيب، وأبدى رأيه، ووقف حمدى يخاطب نفسه:

- «ألم أقل إننى دائمًا أشعر بأثقال تشدنى إلى الأرض؟؟

قال لى الطبيب: إن الولادة متعسرة، وإنه ليس لديه الإمكانيات للقيام بعملية الولادة، وليس هناك من حل سوى السفر إلى إمارة دبى، حيث يوجد المستشفى المركزي المجهز بأحدث الآلات.. وبالتخصصات الطبية.. يا إلهى!! إن الطريق مشحون بالقلاقل.. والمنحدرات.. والكثبان الرملية.. والدنيا ليل.. وهناك ست ساعات على الأقل للوصول إلى دبى.. وفى هذه الفترة قد تموت زوجتى سهاد..

وأنقذه الطبيب من حيرته قائلاً:

- «إن معسكراً مسائياً يبعد عن هنا ساعتين.. المسافة هنا تقاس بالساعات.. وهناك ضابط بريطانى قد يوافق على نقل زوجتك بالهيليوكوبتر..».

قالت الزوجة فى استسلام:

- «ربنا معنا..».

ورغم الدموع والآهات والخوف، فقد شجعته كلماتها وبعثت فيه روحًا جديدة.. والأعمار بيد الله، وليس لنا فى الأمر حيلة.. كان العرق - برغم الشتاء - يسيل على وجهه، وصدره يعلو ويهبط.. وكلمات العزاء والمواساة تتساقط عبر أذنيه.. وكان لا بد من نقل الزوجة وهى راقدة على ظهرها وبدأت الرحلة.. إنه لشىء

مزعج أن تعلو السيارة وتهبط . . وترجهم رجًا عنيفًا . . والحصوات ترتطم بأسفلها وبجوانبها . . حتى حمدى السليم المعافى كادت عظامه تتكسر . . أما المسكينة فقد كانت تكظم أساها ، وتعض على شفتها السفلى ، وتقبض على ذراع زوجها بأصابعها المتشنجة . . كان قلبه يدق فى عنف . . والسائق يمضى فى طريقه صامتًا . . والجبال العالية الضخمة تضرب بهاماتها فى الأفق الأسود . . والسيارة تحت أقدام الجبال تبدو كلعبة صغيرة . .

ومرت الساعات كأنها دهر . . وكان العزاء أن الوقت مر . . وأنهم أصبحوا أمام المعسكر . . لكن يا للأسف ، لقد رفض الضابط البريطانى نقلها فى طائرة إلا بتصريح خاص من الطبيب . . وأين الطبيب الآن؟؟ وكيف فات عليهم ذلك .

لا فائدة . .

وعادوا إلى السيارة كى يكملوا الرحلة إلى دبى فيها . .

ومضى السائق يشق قلب الليل الأسود بهمة لا تفتر . . ووادى حام ينحدر إلى جوار الطريق . . إلى قاع سحيق مخيف . . وسهاد تئن وتتوجع . . وقلب الزوج المسكين يتقطع أسى ولوعة . . والدقائق تمر بطيئة الخطا ، مشحونة بالخوف والحزن ، وكل شىء يطول ويمعن فى العداء والمكابرة . .

الوقت.. الطريق.. الظلال الغامضة.. الظلام.. السحب المكفهرة..

وفهم حمدى من السائق أنهم قد اقتربوا من «الذيد».. لكن الفرحة لم تتم.. إذ لاحظ حمدى أن السائق أخذ يتلفت يمنة ويسرة، ويميل هنا ثم يعدل من سيره، ثم يعود للخلف، وصرخ الزوج قائلاً:

- «ماذا جرى؟».

قال السائق:

- «لقد ضللنا الطريق..».

تسمر الزوج فى مكانه، وكان يعانى من رؤيا رهيبة لا تصدق، وأخذت الزوجة تصرخ: «آه.. أكاد أموت.. أنقذنى يا حمدى.. ارحمنى..».

وقال السائق:

- «لا بد أن نبقى هنا حتى الصباح..».

قال الزوج:

- «إذا حدث ذلك فلن يشرق الصباح على زوجتى.. ستموت لا محالة..».

وارتمى على الرمال الباردة، وشهق باكيًا فى حرارة وانكسار، وأخذ جسده كله ينتفض، شاعرًا بعجز قاتل ذلك العجز الذى شعر به ذات يوم وهو يطرد مع أبيه وأمه ذات مساء أمام جحافل العصابات اليهودية فى بلدة «اللد» . . لكنه سمع صوتًا يشق الظلمة:

- «من هناك؟؟» .

واقترب منهم رجل بدوى، وعرف منهم كل شىء وبعدها قال لهم:

- «لا تقلقوا . . أنا أعرف الطريق . . لكنى أرى أن المرأة التى معكم متعبة جدًا . . ومن حسن الحظ أن لدينا سيدة شابة تعرف التوليد . . » .

ثم اتجه صوب كوخ قريب لم يتبينوه فى الظلمة، ونادى:

- «حمامة . . حمامة . . تعالى» .

وعلمت حمامة كل شىء عن الزوجة، وتعاونوا معها فى حملها إلى داخل الكوخ، وأفهموها أنها ولادة متعسرة، لكن حمامة كانت تقول:

- «ليست هناك قوة فى الوجود، تمنع الجنين من الخروج إذا أتم

مـوعـده . . إنهـا إرادة الله ، وليس أمـامنا سـوى أن نطلب منه السلامة . . » .

ويكى قلب حمدى ، وانسكبت ضراعاته . . وهو الحزين التائه الشريد . . بلا وطن . . من سنين . . ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . . يا لطف الله . . يا نبع الخير والرحمة . . الذرة الضئيلة المسماة حمدى عبد الغفار تشب إلى أعتابك . . وتطلب منك العفو ، العافية . . ويده ترتجف بكوب الشاى . . والدوار المتحكم فى رأسه يفور . . وصوت المسكينة يشق صمت الليل ، ويتصاعد صوب النجوم ، ويمزق نياط القلب . . ثم ساد الهدوء وتخرج حمامة بعد لحظات لتقول :

- «مبروك . . أليس لديكم قطن طبى؟؟» .

ثم أماطت البرقع عن وجهها الجميل ، وقالت :

- «وجهه كالبدر . . » .

قال حمدى :

- «مَنْ تقصدين؟» .

قالت :

- «ابنك لقد ولد وكأنه لم يُعانِ من أى كرب . . إنه يتنفس بسهولة ، ويمص أصابعه ، ويرقد فى فراشه كالملاك الطاهر . . إنه

يضىء الكوخ فى الجانب الآخر . . أما أمه فلا بد من نقلها بسرعة إلى المستشفى . . إنها واهنة القوى . . لقد نزفت كثيراً . . »، وقضيت سهاد أسبوعين بعد ذلك فى المستشفى، وقام لها الأطباء بعملية نقل دم وخرجت فى صحة جيدة، أما الزوج حمدى فقد كان يغادر الفجيرة كل شهر ليقبض راتبه، ويعود بالبضائع والمأكولات . . وبهدية رمزية يقدمها لحمامة فى كوخها كل حين . .



وبكى السجّان

كان السجين معوض أبو زهرة محكومًا عليه بالسجن لمدة عشر سنوات فى جريمة من جرائم الرأى، وكان معروفًا عنه التصلب والتشدد والتمسك بالشعائر الدينية، وكان على جانب كبير من القدرة على تحمل المآسى والصبر على مشاكسات السجانين والسجناء.. لكن هذه القدرة البشرية لها حدود.. ومعوض بشر.. تجرى عليه سنن الحياة ويقع تحت طائلة قانونها الأزلى.. حدث ذات مرة أن وقف معوض يؤذن لصلاة الظهر بصوت أجش داخل زنزانته، فما كان من السجان إلا أن نهره ومنعه من أداء ذلك.. فتشبث معوض برأيه، وحدثت بينهما مشادة ثم صدام.. وسيق معوض إلى غرفة التأديب حيث لقى جزاءه من الضرب المبرح.. وفى الصباح فوجئوا بمعوض إنسانًا جديدًا تمامًا يختلف عن معوض القديم.. لقد وجدوه صامتًا لا يتكلم.. ذاهلاً عن كل من حوله.. لا يستجيب لشىء.. ولا يأكل ولا يعرف شيئًا عن

نفسه أو زملائه المسجونين . . وجاء طبيب السجن ليرى بنفسه، لقد تصور فى البداية أن الأمر لن يخرج عن كونه ادعاءً أو تظاهرًا بالمرض كما يحدث لكثير من السجناء، هروبًا من العمل الشاق، أو طلبًا لبعض الامتيازات الغذائية . . لكن الطبيب وجد معوض فى حالة سيئة وتصادف في هذا اليوم أن قدمت زوجة معوض لزيارته فى السجن الزيارة الشهرية، ووقف الطبيب من بعيد يشهد المنظر المحزن المؤثر . . لقد استقبل معوض زوجته بفتور لم يهتم بها، ولم يتعرف عليها أما ابنته الصغيرة «ليلى» فقد أمسكت بيد أبيها وأخذت تناديه «بابا . . بابا» فلم يكترث لها، واكتفى فى النهاية بأن ابتسم ابتسامة ساخرة ذات بريق ميت . . كانت زوجته تبكى واقتربت منه وطوقت عنقه بذراعه، وهى تقول :

- «أنا زينب يا معوض . . أنا زوجتك . . رد علىَّ . . » .

فما كان منه، إلا أن أمسك بذراعها، ودفعها بعيداً عنه، وهو يقول :

- «عيب . . » .

وأخذت المسكينة تولول وتصيح وهو جالس قبالتها كالصنم لا يكترث لشىء، ولا يلتفت إلى ابنته . . وفجأة وثب من مكانه، وانطلق صوب النافذة ذات القضبان الحديدية وأخذ يؤذن للصلاة بصوته العالى الأجش مع أن الساعة كانت حوالى العاشرة

صباحًا . . ثم أخذ يسب ويلعن ذلك السجان الذى منعه بالأمس من أداء الأذان . .

وانتهت الزيارة كأسوأ ما تكون النهاية، وخرجت زوجته زينب تجر ساقيها جرًا . . وتدق رأسها فى حسرة وعجز قاتل . . تمنت فى تلك اللحظات أن تحطم جدران السجن، وأن يكون لها جناحان تحمل عليهما زوجها وتطير به فى الآفاق بحثًا عن مخرج . . لكن ساقيها تثاقلتا . . ثم تهاوت على الأرض شبه مغمى عليها . . فحملها الحراس إلى الخارج . . وبقى زوجها معوض واقفًا قرب النافذة، بعد أن أدى الأذان كتمثال نحاسى لا يتحرك . . والصغيرة ليلى ينبعث صياحها فيملأ القلوب بالحسرة . .

وأتى الطبيب صوب الزوجة الملتاعة، وقال لها :

- «هذه حالة اكتئاب داخلى حاد . . لا شك أنه إنسان حساس ويعانى من صراع كثيف مكبوت شأنه فى ذلك شأن أى سجين . . لكن ثقى أن مثل هذه الحالة ستتحسن بالجلسات الكهربائية على الرأس . . وأنا بدورى سوف أبذل كل جهدى لنقله إلى قسم الأمراض النفسية بالمستشفى العام . . ».

قالت زينب فى شك :

- «أتعتقد أن زوجى سيعود طبيعيًا كما كان؟؟».

قال الطبيب فى انفعال :

- «بالتأكيد، وسوف أعطيه بعض المهدئات، وسأدرس مشاكله من كل النواحى . . إنه رجل مثقف درس التجارة وهو بطبيعته انفعالى، لا يروق له الكثير مما يجرى داخل أسوار السجن . . والسجن ليس مجتمعًا عاديًا . . إن له تقاليده وحياته الصارمة . . والكثيرون لا يتحملونها . . » .

وأشرف طبيب السجن على نقل «معوض أبو زهرة» إلى المستشفى العام، وبعد شهرين عاد معوض سويًا كما كان . .

كان يبتسم ويضحك ويلتقى بزوجته فى سعادة، ويحتضنها فى حب، ويقبل وجنى ابنته ليلى أثناء الزيارة، ويتقبل هداياهما عن طيب خاطر . .

ومرت الأيام . . وحدث نوع من الشغب داخل السجن، فأمر المأمور بتكدير الجميع، ونفذت بعض العقوبات الصارمة على رؤوس الفتنة . . وتدهورت صحة معوض من جديد . . وعاد إلى ذهوله وشروده . . ونسى كل شىء حوله . . لقد هرب بنفسه من الواقع الأليم إلى حلم غامض صامت لا يعرف عند أحد شيئًا . . وكان سيئ الحظ هذه المرة . . فقد تصدف وأصيب بنزيف دموى فى المسالك البولية، ولم يستطع أن يخبر عنه لذهوله . . ولم يتبينه

المضـمـد إلا بعـد فـوات الأوان. . وبذل طبـيب السـجن أقـصى مـا يستطيعه من جهد لإنقاذه دون جدوى. .

وعندما أدخلت جثته إلى المشرحة نظر الطبيب إلى مكان قريب فـوجـد السـجّـان يبكى وينتـحب. . إنه السـجـان الذى أسـاء إلى معـوض أول مرة. . وكـان هذا السجـان البـاكى أول سـجـان يراه الطبيب فى حياته وهو يبكى. .



القانون

كان الطفل الذى وضعوه أمام الطبيب وحيد أبويه . . وكان فى الخامسة من عمره، وقد بدا الطفل منزعجًا قلقًا، وعرق غزير يكسو وجهه الأزرق الجميل الملامح، وسعال مميز يأتى على دفعات . . وفى عينى الطفل المسكين استطاع الطبيب أن يقرأ معانى الاستغاثة الأليمة . . الاستغاثة التى يكمن وراءها العجز البشرى الخالد . . وقاس الطبيب درجة الحرارة، ثم فتح فم الطفل تحت ضوء البطارية . . يا إلهى !! إنه يشم رائحة مميزة . . ليس هذا فحسب بل أن في الحلق يوجد الغشاء الكاذب المميز الرمادى اللون . . إنها الدفتريا . . التى يكون معظم ضحاياها عادة من الأطفال الأبرياء . . وكان أخطر ما فى الأمر أن حالة الطفل تتدهور بسرعة، وأن نَفَسَه يكاد ينقطع، وزرقة وجهه تزداد من وقت لآخر . . إن الطفل يوشك أن يختنق تمامًا . .

الليل فى الخارج حالك السواد . . والقرية نائمة، وليس بالوحدة الصحية عربة إسعاف، والمدينة تبعد عن القرية ما يقرب

من أربعين كيلو متراً . . والطبيب المبتدئ حائر . . والطفل على شفا الخطر المحدق به . .

قال الأب فى ضراعة :

- «خذ كل أموالى يا طبيب وأنقذ ولدى . . لو مات فلن يكون للحياة طعم بعده . . ».

أما الأم فقد بدا عليها كأنها قد فقدت عقلها ، كانت تبتسم فى بلاهة ، ثم تبكى ، ثم تختطف ولدها وتضمه إلى صدرها فى حرارة ، وتقبله فى جنون ، وتطلب له بعض الماء دون حاجة ، ثم تحضر له بعض الأغطية وتغطيه دون حاجة أيضًا . . وتقدم له بعض الطعام . . إنها لا تدرى ماذا تفعل ، لقد علمت أنها بعد أن ولدت طفلها هذا أصيبت بعقم ثانوى . . معنى ذلك أنها لن تحمل مرة أخرى على الأرجح . . أصبح طفلها هو أملها الوحيد . . وها هو الآن يتعرض للاختناق ، للموت .

لم يحاول الطبيب أن يضيع الوقت سدى ، انتحى بالأب جانبًا ، وقال له :

- «أنت مشرف زراعى ، ولديك بعض المعرفة لا شك .. إن ولدك لن يعيش أكثر من نصف ساعة لو ترك هكذا . . هناك حل واحد . . ».

هتف الأب كغريق :

- «ما هو يا دكتور؟ . . » .

قال الطبيب :

- «الذى ينقذ طفلك هو الشق الحنجرى . . » .

تمتم المشرف الزراعى قائلاً :

- «الشق الحنجرى؟؟ ما معنى ذلك؟؟» .

قال الطبيب وجبينه يتقاطر عرقًا :

- «أنا لم أجربه قبل . . لكن قرأت عنه فى كتبي الطبية . . وأعرف كيف أعمله ، ولدى الأدوات والآلات اللازمة لذلك ، إنه عبارة عن شق أو فتح أسفل الحنجرة فى مقدم العنق . . إننا بذلك نستحدث مجرى جديدًا للهواء الذى يحبسه الاختناق . . سوف يمر الهواء إلى القصبة الهوائية فالرئتين . . بذلك يتنفس ولدك . . وينجو . . إنها محاولة لا بد منها . . لو فكرت فى نقل ولدك إلى المدينة لمات فى الطريق . . أنت تدرك خطورة الموقف . . لكن لا بد أن تكتب إقرارًا بالموافقة على إجراء هذه العملية . . وتوقع عليه . . » .

كانت يد الطبيب ترتجف ، لم يكن هناك خيار ، الشق الحنجرى هو البديل الوحيد للموت ، ولن تستغرق العملية أكثر من دقائق . .
قال الأب فى استسلام :

- «أمرى لله . . افعل ما بدا لك يا دكتور . . أنت أبوه وأمه . . إنك مبعوث العناية الإلهية . . » .

كانت مساجد القرية الثلاث تهلل وتكبر لمطلع الفجر الوليد، وكان الطبيب جالسًا إلى جوار الطفل بعد أن أجرى له العملية، وأعطاه المصل المضاد لسموم الدفتريا، وأعطاه المضادات الحيوية . . وكان الطفل ينام فى هدوء بعد أن انقشعت غمامة الخطر، ووزالت زرقة وجهه، وارتاحت أنفاسه . . وأخذ الطبيب يتملى ملامح الطفولة البريئة، وعشرات الأسئلة تثور فى ذهنه المتعب المكدود عن الموت والحياة والكون والإنسان . . وعن قدرة الخالق . . وأخذته سنة من النوم وهو جالس على المقعد المجاور لسرير المريض، ولم يفق من نومه إلا وقد أشرقت الشمس . . ونظر حواليه فوجد الطفل نائمًا . . ووجد الأب والأم واقفين فى خشوع كأنهما فى محراب للصلاة .

وهرول الطبيب إلى غرفته كى يعد نفسه لاستقبال يوم جديد . . وليفحص المرضى الذين يفدون عبر الحقول من القرى المجاورة . .

وفى الساعة الثامنة صباحًا قدم المفتش الطبى من المدينة ليفتش على الطبيب ويكتب تقريرًا عن أعماله ومدى كفاءته . . وكان الطبيب سعيدًا غاية السعادة وهو يأخذ المفتش ليريه الطفل الذى أجرى له عملية الشق الحنجرى فى المساء . . والذى تحسنت حالته . .

وكم كانت دهشة الطبيب حينما سمع مفتشه يقول :

- «كيف تبيح لنفسك إجراء عملية شق حنجرى؟؟ أنسيت أنها ليست من ضمن العمليات المصرح لك بإجرائها . . » .

قال الطبيب فى دهشة :

- «لكنها أنقذت حياة إنسان، وأنا لم أخطئ . . ولم يكن هناك بديل لها وإلا مات الطفل . . » .

رد المفتش فى عنجهية ودون اكتراث :

- «لا بد من حضورك يوم السبت القادم لإجراء تحقيق معك . . سوف تجازى بخمسة أيام خصم من راتبك على الأقل لعدم احترامك للقانون . . » .

غمغم الطبيب فى ذهول :

- «أى قانون؟؟» .



فخر الزمان

عيادة الجراحة ممتلئة بأنماط مختلفة من الناس، وأصوات كثيرة عالية مختلطة، والفراش لا يكف عن الصياح ودفع أمواجهم للخلف، والجو حار، ورائحة العرق تختلط برائحة الكحول والليزول ومختلف العقاقير، وقرأ الطبيب فى بطاقة أمامه اسم المريض: «فخر الزمان عبد المجيد» .. ورفع الطبيب رأسه ليرى أمامه رجلاً شاحب الوجه، بارز الوجنتين، غائر العينين، منتفخ البطن لدرجة تلفت النظر، وأنفاسه تتلاحق فى صعوبة ظاهرة، وهمس الطبيب وقد هاله الفارق الكبير بين الاسم والحقيقة:

- «إذن فأنت فخر الزمان؟؟ ممَّ تشكو؟».

وعجب الطبيب إذا سمع مريضه يقول:

- «مرضى هو الحسرة.. الحسرة.. بكل تأكيد..».

ليس هناك مرض عضوى اسمه الحسرة، لذا ابتسم الطبيب فى سخرية، وضحك الواقفون حوله، ودفعه المضمد فى ضيق،

فأفلتت من عين فخر الزمان دمعة، وسرعان ما أتت امرأة بدينة بعض الشيء، والكحل الأسود يغرق عينها، وعليها مسحة من جمال صارخ، وصاحت محتجة وهى تقول:

- «إنه مريض بالطحال يا دكتور.. إنه زوجى».

وعاد الناس يضحكون عندما سمعوا فخر الزمان يقول:

- «لا تصدقوها.. أنا أعرف مرضى.. أنا مريض بالحسرة..».

وساد هرج ومرج مما اضطر لإخلاء الغرفة، وإدخال المرضى واحدًا واحدًا، وبعد أن فحص فخر الزمان تبين له أنه مصاب بتضخم فى الطحال فعلاً، وأخذ المريض يحتج ويرفض هذا التشخيص بينما يحاول الطبيب أن يشرح له أسباب تضخم الطحال، كالملاريا والبلهاروسيا وغير ذلك من الأمراض الأخرى، لكن فخر الزمان عبر عن ضيقه فى بأس، وقال:

- «قلت لك أنا مريض بالحسرة.. وطحالى لا يصح أن تستأصلوه بجراحة.. إن التى يجب أن تستأصل هى زوجتى هذه الملعونة.. إن قصتها مع عنتر يعرفها أهل القرية.. ولا شك..».

قبل أن يكمل حديثه جذبه الممرض برفق، وقال:

- «خذ علاجك يا فخر الزمان وانصرف.. إن المرضى كثيرون وليس لدى الطبيب وقت للثرثرة..».

وأردف الطبيب قائلاً :

- «تستطيع أن تعود إلينا بعد أسبوع لإجراء الجراحة إذا أردت . . ولا تنسَ أن تأخذ هذا الدواء معك . . » .

ونظر فخر الزمان ، بعد أن غادر الغرفة إلى الوصفة الطبية . . إنه لا يفهم الأحرف اللاتينية التى كتبت بها ، ومن ثم فهو عاجز عن فك رموزها الصعبة . . إنها تشبه إلى حد كبير رموز حياته التى لا يدرك لها معنى . . وزوجته إلى جواره . . لشد ما كان يحبها . . تزوجها فى البداية زواج بدل . . نعم إن أخاها تزوج أخت فخر الزمان ، وكان على فخر الزمان أن يتزوج أخت صهره . . هكذا يكون العرف . . وأحبها فى البداية . . لكن الذى كان يؤرقه حبها القديم لعنبر ذلك الجندى المسرّح من الجيش . . والناس يتحدثون ، ويلوكون سيرته وسيرة زوجته . . والعار يلاحقه . . وهو يشعر بالتضاؤل والغربة والعذاب . . وصحته تتدهور وجمالها الصارخ يهتف به وهو مريض واهن القوى محطم الجسم والنفس . . لعنة الله على المرض . . إن زوجته تتألق وهو يذوى وينطفئ رويداً رويداً . . والعلة تكبر فى بطنه . . يزعمون أنها الطحال . . وهو لا يصدق . . إن الحزن الذى يعانى منه قد أورثه الحسرة . . إنه مُصرٌ على إنه مريض بالحسرة . .

●●●

ثلاثة أيام مرت . . والساعة قاربت الثانية والنصف بعد منتصف الليل، والطبيب يجلس فى غرفة الحوادث واستقبال المرضى والنوم يغالبه، والممرضة تجلس قبالته كالديدبان اليقظ، والمستشفى غارقة فى الصمت تحت عباءة الليل البارد . . وتناهى إلى أسماعها صوت الأجراس المعهودة . . إنها عربة الإسعاف . .

كان المريض الذى حملوه إلى غرفة الإسعاف يتقيأ دمًا . . لكنه كان متماسكًا وفى حالة وعى تام، وعندما رأى الطبيب ذلك قال للممرضة: «لا بد من إدخاله المستشفى فورًا» والتفت الطبيب إلى المريض قائلاً: «ما اسمك؟؟».

قال المريض:

– «اسمى فخر الدين عبد المجيد . . أهكذا تنسانى بسرعة يا دكتور؟ ألم أقل لك إن الحسرة سوف تقتلنى . . والسبب زوجتى . . ».

قال الطبيب للممرضة دون أن يلتفت إليه:

– «نزيف من دوالى المرىء . . ناتج عن تليف بالكبد . . مع تضخم بالطحال من أثر بلهارسيا قديمة . . ».

قال المريض فى حدة:

– «لا تذكر الطحال والبلهارسيا ولا دوالى المرىء مرة أخرى يا

دكتور. . إنها الحسرة كما قلت لك. . الفلاحون لا يتكلمون إلا عني وعنها. . إنها لأمر مخجل ويقصر العمر. . زوجة فخر الدين تحب عنتر. . يا للمهزلة. . عادت إليّ أمس بعد العشاء. . قلت لها أين كنت يا امرأة؟ قالت: كنت عند عنتر فافعل ما بدا لك. . الحقيقة أن دمي فار. . شعرت بغليان في جسدي. . أشياء كالمطارق كانت تدق رأسي وغشاوة انسدلت على عيني. . لم أعد أرى شيئًا. . بحثت عن فأس لأحطم رأسها فلم أجد. . وثبت إلى عنقها وقبضت عليه بأصابعي المتشنجة وغرزت فيه أظافري. . لكنها دفعتني بكل قوتها بعيدًا. . فسقطت. . نعم سقطت ووقعت على ظهري. . إنه لشيء فظيع أن تهزمني امرأة وتطرحني أرضًا. . وبكيت. . لقد بكى فخر الدين عبد المجيد. . ثم تقيأت على الفور دمًا أحمر. . تفجرت الحسرة في داخلي كبركان. . هل صدقت الآن يا دكتور كلامي؟؟».

وأدخل فخر الزمان للمستشفى، وأجريت له عملية نقل دم ووضع تحت الرعاية المركزة، وكانت زوجته ترابط أمام المستشفى، وتختلس بعض المناسبات القصيرة لتدخل إليه وتزوره، كان يزورّ عنها ويعطيها ظهره. . ويصرخ فيها كي تخرج وتتركه وشأنه، وكانت تبكي في صمت وخوف. .

وذهب الطبيب إلى غرفته كي يستريح، وأخذته سنة من النوم. . كان العمل مرهقًا، والسهر متواصلاً، والمرضى يتدفقون

من آن لآخر، ولا مجال للراحة الحقيقة إلا اختلاسًا . . وأفاق الطبيب على هزات رقيقة . . وفتح عينيه ليرى المضمد أمامه يقول :

– «شهادة وفاة يا دكتور . . » .

فتح عينيه وأغمضهما عدة مرات، وقال :

– «مَنْ؟؟» .

قال المضمد :

– «إنه مريض النزيف المعدى . . اسمه فخر الزمان عبد المجيد ترى ماذا نكتب فى خانة التشخيص وسبب الوفاة؟» .

قال الطبيب وهو يغالب النعاس :

– «الحسرة!!» .

ضحك المضمد، وقال :

– «ماذا؟؟ الحسرة؟؟ إنك لم تزل نائمًا يا دكتور . . » .

وهبَّ الطبيب واقفًا، وأمسك بالأوراق وكتب : نزيف من دوالى المرىء وتضخم بالطحال وتليف بالكبد . . » .

ونظر عبر النافذة . . كانت امرأة تميل إلى البدانة . . بارعة الجمال تصرخ من أعماقها قائلة : «يا حبيبى يا فخر الزمان . . » .

وشعر الطبيب أن كلمة «حبيبى» تخرج كاللحن النشاز .

فى سبيل الطين

كان «إبراهيم عبد المتعال» يثير فى قلبى الشفقة والحزن، إنه مثال القروى البرىء الذى وقع ضحية سوء التغذية، ونقص الفيتامينات لسنوات طويلة، إنه يسير فى القرية كالمجنون، عيناه دائمًا جاحظتان خائفتان، نظراته لا تكاد تستقر على شىء، ووجهه شاحب وتكسو خده وعنقه وصورة القشور البنية المميزة لمرض البلاجرا.. إنه يجرى حافى القدمين، والأطفال يطاردونه أينما رحل فى شوارع القرية وأزقتها الضيقة، والغريب فى الأمر أن «إبراهيم عبد المتعال» يمتلك قطعة كبيرة من الأرض الزراعية تبلغ أكثر من أحد عشر فدانًا.. لكن أخاه الأكبر محمود هو الذى كان يتصرف فيها وفى إيرادها، وإبراهيم مسكين صغير السن لا يعرف شيئًا عن التغذية وأصولها.. وزوجة أخيه «نجية» إنسانة شرسة لا ترحم.. إن إبراهيم يتيم الأبوين منذ الصغر، ربته «نجية» على العصا، وتسمعه كل يوم السباب المقذع، تنهره بمناسبة وبغير مناسبة.. تقذف له كسرات الخبز وحصوات الملح.. وهو مستسلم

خائف لا يستطيع أن يرفض لها طلبًا، أو يقوم فى وجهها بأى احتجاج، وأخوه الكبير محمود مشغول عن الجميع فى عمله المستمر طول اليوم فى الحقل . . وإبراهيم برغم ضعفه ومرضه والرعب الذى يعيش فيه، يجرى وراء زوج من الحمير يحملان التراب ومنتوجات الحقل والصبية يسخرون منه . . الغريب أن هناك أكثر من فتاة تريد الزواج من إبراهيم ليس حبًا فى جماله وشبابه . . ولكن طمعًا فى ميراثه الذى تسيطر عليه زوجة أخيه . .

عندما رأيت إبراهيم لأول وهلة استطعت أن أشخص مرضه وبعد فحصه بدقة أيقنت أن بقاء إبراهيم فى المستشفى وإعطاءه جرعات قوية من الفيتامينات، وترتيب نظام غذائى كامل له سوف يؤدى إلى شفائه من البلاجرا، وسوف يذهب عنه هذا الخلل العقلى، ويعيده إنسانًا سويًا متزنًا . . عندئذ نستطيع أن نوجهه إلى أسلوب الحياة الجديدة، وننجيه من الوقوع فى مثل هذه الأمراض، وخاصة أنه قد اتضح أنه مصاب ببعض الأمراض الطفيلية كالأنكلوستوما والإسكارس والبلهارسيا . .

وقد فوجئنا باعتراض زوجة أخيه على علاجه . . إنها لا تثق فى الدواء والإبر . . وتعتقد أن «الزار» وحده هو القادر على شفائه . . لكن عن طريق اتصالى بعمدة أو مختار القرية استطعنا أن نرغمها على قبول دخول إبراهيم للمستشفى . .

كانت التجربة بالنسبة لى تجربة مثيرة وجميلة فى الوقت نفسه وخاصة أننى فى بداية حياتى الطبية. . كنت أرى إبراهيم وهو يتحسن رويدًا رويدًا. . وأراه وهو يعقل الأمور بالتدريج. . إن الدم أخذ يجرى فى بشرته ويميل شحوبه إلى حمرة خفيفة. . وأخذ جمسه يمتلئ. . ونظراته تستقر وطوال أسابيع العلاج كانت زوجة أخيه تأتى لإخراجه من المستشفى قسرًا، لكننا كنا نمنعها، وكان إبراهيم هو الآخر يرفض الخروج معها. . لقد تحسن إبراهيم عبد المتعال كثيرًا. .

أصبح جديرًا بأن يكون عريسًا وزوجًا. .

إنه فى الثامنة عشرة من عمره، وقد شفى من البلهارسيا والأنكلوستوما والإسكارس والبلاجرا. . أعنى. . لقد ولد من جديد. . .

وكم كانت دهشتنا عندما رأينا «نجية» زوجة أخيه الأكبر تغير من أسلوبها فى التعامل معه. . إنها أصبحت تحضر له بعض الطعام، وتقدم له قدرًا من الفاكهة والعسل الأبيض والقشدة. .

وذات مساء وحوالى الساعة التاسعة وقد أوى الفلاحون إلى بيوتهم بعد صلاة العشاء سمعت فى المستشفى صياحًا وجلبة. . كان مسكنى يقع داخل المستشفى، خيل إلى أن أحد المصابين ربما يكون قد أحضر إلى غرفة الحوادث. .

لكن سمعت المضمد رضوان يصيح بى فى عجلة :

- «الحق يا دكتور . . المريض إبراهيم عبد المتعال مات» .

صرخت فى دهشة :

- «مات؟؟ كيف؟؟ إننى لا أعرف سببًا لذلك . . » .

ذهبت إلى عنبر المرضى، كان صمت الموت يخيم على المكان، والمرضى جلسوا على أسرّتهم فى حزن وكمد، وإبراهيم ممدد على فراشه، وظلال الموت على وجهه التعس . . لقد غاضت الابتسامات التى كانت قد ولدت على شفتيه منذ أيام . . ووجدت على سريره ولدى موطئ قدمية كمية من القيء . . وعلى «الكوميدنيو» بقايا طعام من أرز وبطاطس ولحوم أحضرتها له زوجة أخيه نجية . . .

ووثبت إلى ذهنى فكرة . . أخذت أتفحص الجثة بكل عناية . . ماذا جرى؟

وقال لى المضمد :

- «هل تأمر بنقله كى يُغسل ويعد للدفن؟؟» .

قلت فى إصرار :

- «لا . . سوف أبلغ النائب العام، وأستدعى زميلى الطبيب الشرعى أننى أظن أن الوفاة قد تكون جنائية . . » .

وتحفظت على الطعام الذى تناول إبراهيم جزءًا منه منذ ساعات، كما احتفظت بكمية من القيء..».

وحضر الطبيب الشرعى لتشريح الجثة...

لقد ثبت أن إبراهيم عبد المتعال قد مات مسمومًا بسم الزرنيخ.. وأن القاتلة هى زوجة أخيه نجية التى دست له السم فى الطعام.. وإن الهدف من الجريمة هو أن يرث زوجها أرض أخيه إبراهيم..

وحكمت المحكمة على نجية بالسجن خمسة عشر عامًا.. غير أن بقاءها فى السجن لم يدم سوى أكثر من عام حيث قضت نحبها فيه.. وخلفت وراءها كل شيء.. الأرض.. والولد.. والمال...



حالة وفاة

يقولون إن معظم النار من مستصغر الشرر، وهذا شيء يراه الطبيب ويلمسه كل يوم بين مرضاه سواء في مستشفاه أو في عيادته الخاصة، ولماذا نذهب بعيداً؟؟ إن الجرثومة نفسها لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة.. إنها كائنات دقيقة صغيرة.. تافهة إذا ما قسناها بأحجامنا نحن البشر.. لكنها تقتل وتدمر الإنسان.. ثم إن مجرد حك الجلد أو عصر دمل صغير أو إهمال التهاب محدود قد يؤدى إلى تسمم دموى رهيب يودى بحياتنا.. وربما نصاب بصدمة بسيطة فى مكان ما، فتترك مضاعفات خطرة..

إن الحادثة التى أرويها لكم وقعت فى إمارة رأس الخيمة.. كانت الأسرة تسير بسيارتها فى الطريق العام لقضاء العطلة الأسبوعية، والأطفال يغنون ويمرحون ويصفقون.. وفجأة اندفع من جانب الطريق جمل.. لم يكن الأب الذى يقود السيارة يقدر على أن يتفادى الصدام لأنه كان مسرعًا، ولأن المسافة بين السيارة والجمل كانت قصيرة.. لكنه حاول أن يتوقف وصرخت الزوجة والأطفال.. وما هى إلا لحظات حتى كان الجمل فوق سقف

السيارة، ولم يستطع السيد عبد القادر- وهذا هو اسم الأب- أن يعي ما جرى، لقد فقد الوعي للحظات قليلة. . التفت حوله فوجد أطفاله بخير، لكن الرعب كان باديًا على وجوههم. . ونظر إلى زوجه فوجد جرحًا في فخذها. . وانزعج لمرأى الدم. . وفزع من سيارته، وتعاون المارة في سحب الجمل إلى جانب الطريق. . وعلى الرغم مما أصاب السيارة إلا أنها كانت صالحة للاستعمال. . .

كان عبد القادر يحب زوجته الوفية المخلصة أشد الحب، وكان لا يطيق أن يراها وهي تتألم أو تبكي ، لقد شاركته سنوات الكفاح الطويلة، وصبرت على الشدائد، وضحت من أجله بالكثير، واستدار عبد القادر بسيارته نحو المستشفى. . إن الظنون والهواجس أخذت تلعب به. . إنه خائف أن تكون زوجته قد أصيبت بكسر في العظام أو العمود الفقري، ولعلها تكون قد أصيبت بما هو أخطر من ذلك، لكنها تتظاهر بالصمود وعدم الاكتراث. .

وبدا عبد القادر متوتر الأعصاب ثائرًا. . إنه يصيح بالسسترات وينادي على الطبيب في المستشفى. . ويصرخ في الفراشين. . «ما هذا الإهمال. . السيدة في خطر. . تحركوا. . ».

وأتى الطبيب مسرعًا. . وكم كانت دهشته عندما فحص المصابة. . لقد لاحظ أن جرحها بسيط، ولا يستحق هذه الضجة الكبيرة التي أثارها عبد القادر، ونظر الطبيب إلى عبد القادر، إن وجهه محتقن وعيناه جاحظتان، ولا يكاد يكف عن الحركة، إنه يقترب من

زوجته . . ويربت على كتفها فى حنان . . ويلامس شعرها ، وأهدابه تتبلل بالدموع ويهتف فى رقة «سلامتك ألف سلامة يا حبيبتى . . » .

وأعد الطبيب خيوطًا وإبرًا ليعمل بضع غرز كى يخيط الجرح فى فخذ الزوجة . . ولم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق ، لقد تألمت الزوجة بعض الشىء ، وكان عبد القادر يبدو متألمًا أكثر منها ، وبدا واضحًا أن توتره وانفعاله قد زاد عن الحد الطبيعى . . والتفت الطبيب إلى عبد القادر قائلاً :

- «هون عليك ؛ الأمر بسيط . . » .

وابتسم الطبيب فى رقة واستطرد قائلاً :

- «ألا تشعر بشىء؟ . . » .

وضع عبد القادر يده على رأسه ، وقال :

- «أشعر أن فى رأسى ضغطًا مهولاً . . رأسى يكاد ينفجر . . إننى أشعر بدوار . . لقد هزنى الحادث هزًا عنيفًا . . وبعث فىّ الخوف . . لقد لعنت السيارة ومن اخترعوا السيارات أقول لك الحق . . كيف يكون حالى لو أصاب أحدنا مكروه؟؟» .

ولم يكد عبد القادر يكمل حديثه حتى تراخت ساقاه ، وتدلى رأسه وسقط على الأرض ، فأسرع الطبيب ومن معه من الحاضرين وحملوا عبد القادر إلى أقرب سرير . .

وقال الطبيب فى دهشة :

- «لا يمكن أن يكون الأمر مجرد توتر وانفعال . . ».

قالت الزوجة الجريحة للطبيب :

- «ماذا تعنى؟؟».

- «سوف نرى . . ».

لم تكن الزوجة فى حاجة إلى المزيد من العناية بعد أن خيط جرحها وأعطيت حقنة المصل المضاد للتتانوس، التى تعطى عادة لكل من يصابون بجروح أثناء الحوادث لحمايتهم من خطر التلوث . . .

وأخذ الطبيب يفحص عبد القادر بكل دقة وعناية . . أخذ يقيس له الضغط الدم، ويعد النبض، ويضع المسماع على صدره وقلبه، ثم فتح عينيه وأخذ يتفحصهما . . آه . . يا للكارثة!! إن فى إحدى العينين لاحظ اتساع الحدقة . . هذه علامة مخيفة . . ثم ماذا؟؟ إن الطبيب لاحظ أيضًا كدمًا فى فروة رأس عبد القادر . . إذن عبد القادر مصاب بارتجاج فى المخ أو اشتباه نزيف داخلى فى المخ . . وأخذ الطبيب يجرى الإسعافات الأولية اللازمة ويسرع باستكمال الفحوص الإشعاعية وغيرها لكى يتأكد من التشخيص . . وراح عبد القادر فى غيبوبة عميقة . . .

وقالت زوجته والدموع تغرق وجهها :

- «لماذا لا يكلمنى؟؟ ليس فى جسده ما يؤدى إلى مثل هذه الغيبوبة . . ».

وأخذت تتشبث بالطبيب، وتهتف:

- «خبرنى بربك يا سيدى.. لماذا يحدث ذلك؟؟ ليس هناك من سبب وجيه كى يصمت هذا الصمت.. ألا يسمعنى الآن؟؟ إننى أكاد أجن.. إنه لم يقع فى غيبوبة طول حياته..».

وجاء المساء كابيًا حزينًا...

والأسرة الصغيرة ما زالت معتصمة بباب المستشفى، والزوجة الشابة تتطلع إلى السماء فى ضراعة.. لم تعد تشعر بآلام جرحها.. إنها تفكر فقط فى رجلها الذى سقط فى غيبوبة طويلة..

قال الطبيب:

- «لو تحسنت حالته فسوف نجرى له جراحة عاجلة..».

صرخت الزوجة فى خوف:

- «لماذا الجراحة؟؟ وأين؟».

قال الطبيب:

- «فى رأسه.. للتخلص من نزيف المخ..».

فى الصباح كانت الزوجة المسكينة تغرق قدمى زوجها بدموعها.. لقد ترك الحياة.. دون وداع.. بسبب كدمة بسيطة فى رأسه.. كدمة لم تنزف ولم تمزق جلد الرأس.. وأخذت صرخات الزوجة البائسة تتردد فى أروقة المستشفى..

قصيدة حب

كنت أعرف الأستاذ حسن عوض الله منذ سنوات إنه شاب مرح في الثالثة والعشرين من عمره، ويخطو الخطوات الأولى في طريق الحياة الصحفية، إنه يكتب تحقيقات صحفية بصورة جميلة، كما يكتب القصة القصيرة، ويشارك في المجتمع الأدبي بقدر غير قليل، هذا على الرغم من ثقافته المتوسطة التي لم تتعدَّ الثانوية العامة.

أتى إليّ حسن عوض الله ذات مساء في عيادتي الخاصة، كان قلقًا مرتبكًا، يفرك أصابعه في عصبية، والشحوب بادٍ على وجهه، قلت: «خيرًا يا حسن، لقد أتيت بلا موعد».

قال: «ليس للمرض وقت. . ».

وانتحى حسن بي جانبًا، وقال لي إنه أحضر أخته «سامية» لفحصها وأشار بيده إلى فتاة جميلة سمراء قد غطت وجهها بشال أسود شفاف وبدت قسمات وجهها من خلف الخمار فاتنة أخّاذة، وعندما نظرت صوبها طأطأت رأسها في خجل، وأرخت أهدابها، ولم تتكلم،

أدخلتها إلى غرفة الفحص بمساعدة الممرضة، وأخذت أسأل عن شكواها فأخبرتنى أنها تشكو من آلام فى البطن وفقدان شهية وغثيان وقيء فى بعض الأحيان، وبعد سؤالها وفحصها بعناية تبين لى أنها حامل فى شهرها الثالث.. فهنأتها، وسألتها عما إذا كانت تعرف ذلك من قبل أم لا، فأخبرتنى أنها كانت تعتقد أنها حامل بسبب انقطاع العادة، وتلك الأعراض المميزة الخاصة بالوحم، كانت تتكلم فى خجل، والكلمات المتلعثمة تتعثر على شفتيها، وقدم حسن من الغرفة المجاورة وسأل عن نتيجة الفحص، وعندما أبلغته بالأمر قال:

- «كنا نعلم ذلك.. ولذا أتينا إليك..».

قلت:

-«إنها تحتاج لقليل من الأدوية، وبعض المقويات، والاهتمام بالغذاء، ولا شيء غير ذلك..».

شرد حسن لحظات ثم قال:

- «دكتور... لقد جئنا إليك لنتخلص من هذا الحمل..».

هتفت فى دهشة:

- «لماذا؟؟».

قال: «هذه رغبة زوجها.. إن أختى ليست على وفاق مع زوجها، إنه شرس عربيد، يضيع معاشه الشهرى على اللعب والقمار والخمر ومطاردة النساء.. لقد هجرته فعلاً ولا نريد امتداداً لعلاقتها به...».

قلت فى هدوء :

- «أنت تعلم يا حسن مبادئى . . ليس من عملى إجهاض الأجنة أو قتلهم ، وخاصة أنه لا يوجد سبب طبى لذلك . . » .

قال حسن فى ضيق :

- «لكن يوجد سبب اجتماعى . . إن هناك إنسانة تشقى وتتعذب ولا يصح أن نحكم عليها بالعناء والتعاسة . . أتفهمنى ؟ ؟ إنك تؤدى واجبًا إنسانيًا بإنزال هذا الجنين . . . » .

لم يكن هناك أمل فى أن أقتنع بمنطقه ، وكان هو بدوره مصرًا على موقفه ويحاول جاهدًا أن يقنعنى بأن أفعل شيئًا وخرج حسن من عيادتى غاضبًا مكفهر الوجه بعد أن استمع إلى رفضى القاطع ، وتأكيدى له بالتزامى الكامل بالقسم الذى أقسمته يوم أن تخرجت فى كلية الطب . . » .

كنت أدرك أن صديقى حسن يريد لأخته حياة خالية من المشاكل ، إنها سوف تطلق من زوجها ، لكن سيكون لها طفل منه ، وهذا الطفل سوف يربطها به إلى الأبد ، وقد يؤثر على حياتها الخاصة ، ويسبب لها الكثير من المشاكل والحرج ، ومع ذلك فلم يكن فى إمكانى أن أفعل غير ما فعلت احترامًا للقانون والقسم . . .

وبعد بضعة أيام دق جرس التليفون فى عيادتى ، كنت مرهقًا غاية الإرهاق ، والنوم يغالب أجفانى ، والساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ورفعت السماعة لأجد صوت حسن يستغيث فى لهفة :

- «أنقذنى يا دكتور . . سامية ستموت . . أنا لا أدرى ماذا أفعل . . أنت تعرف عنوان شقتى . . أحضر بأقصى سرعة . . أرجوك . . » .

وعندما بلغت الشقة التى يسكن فيها حسن، ودلفت إلى غرفة النوم وجدتها ترقد على السرير كالوردة الذابلة، والشحوب يكسو وجهها والخوف يطل من عينيها، ووجدت إلى جوارها امرأة غارقة فى الملابس السوداء . . .

ومدت سامية يديها صوب حسن وهتفت :

- «أنا فى عرضك . . أنقذنى . . سأموت . . » .

قال حسن :

- «لا تخافى يا حبيبتى . . سيكون كل شىء على ما يرام . . » .

كانت الحقائق التى صدمت بها أقوى من ثباتى، لقد تبين لى أن سامية ليست شقيقة حسن كما زعم بل صديقة له، وأن الحمل لم يحدث بزواج وإنما نتيجة خطأ وقعا فيه، وأن السيدة الواقفة إلى جوار سرير المريضة، و الغارقة فى ملابسها السوداء إحدى محترفات الإجهاض غير الشرعى، وأن محاولة بشعة قد أجريت وذلك بقصد إنزال الجنين، فنتج عن ذلك نزيف يكاد يقضى على سامية . . .

ركع حسن على ركبتيه، والدموع تترقرق فى عينيه، وأمسك بيدى فى توسل، وقال :

- «افعل أى شيء. . ».

قلت: «بشرط واحد. . ».

هتف حسن فى لهفة:

- «أنا تحت أمرك، ورهن إشارتك».

قلت وأنا أحاول إسعافها:

- «لا بد أن تتزوجها. . ».

أبدى حسن موافقته الفورية، ومسئوليته الكاملة، ومن ثم أسرعت بنقلها فى سيارتى إلى أقرب مستشفى، حيث أجريت لها جراحة عاجلة، ونقل دم، وتم إنقاذها فى آخر لحظة وحاولت أن أسوق المرأة التى حاولت إجهاض سامية إلى الشرطة لكن توسلاتها ودموعها وقسمها بألا تعود إلى تلك الحرفة الخطرة جعلنى أعفو عنها. . .

بعد شفاء سامية أقام صديقى حسن حفل زفاف عائلى صغير كان سعيداً، وكانت عينا سامية تترنمان بقصيدة حب عميق، وتهز رأسها نحوى فى امتنان وسعادة.



قدرة الله

إن للحظة الميلاد قدسيتها وروعتها، والطفل الذى يولد ويندفع الهواء إلى رئتيه فينبعث صراخ من نوع عجيب محبب إلى النفوس . . هذا الطفل الصغير الجميل يثير فى النفس عديدًا من المشاعر والمعانى، إن الحياة تولد من الحياة، والقدرة الإلهية تصنع المعجزة الخالدة ببساطة مذهلة فى كل ثانية من الثوانى . . هذه الأفكار تراود الطبيب الجديد، وتستولى على لبه فى عمق وتأثر . . لكن عندما قدمت «نفيسة» إلى مستشفى الولادة كان منظرها يبعث على الأسى والحزن . . كانت بين الحياة والموت . . ويمكننا أن نقول إنها كانت فى حالة احتضار . . إن أنفاسها لاهثة متسارعة، وقلبها يدق بعنف حتى إن الطبيبة المناوبة كانت ترى نبضات صدرها فى الجهة اليسرى ونبضات شرايين عنقها . . وكان وجهها باهتًا كوجوه الموتى ويكسوه العرق، ولم يكن هناك من علامة للحياة سوى العيون التى تطرف فى وهن، والقلب الذى يدق فى عنف، ثم الدم الذى ينزف منها . . وكان واضحًا أن «نفيسة» تحتاج إلى جراحة عاجلة لإنقاذها

وإنقاذ الجنين . . لكن الأطباء رأوا أن هناك هبوطًا فى قلبها . . أعنى أن القلب كان فى حالة سيئة ولم يكن متكافئًا، وأن إجراء العملية فى مثل هذه الظروف قد يعجل بحياة الأم . . ووقف الأطباء حائرين . . إنهم لا يدرون ماذا يفعلون . . كانت برغم ظلال الموت تبدو متشبثة بالحياة . . وكانت تهتف فى اللحظات القليلة التى تفيق فيها إلى رشدها، وتستجمع قواها تهتف قائلة: «يارب نجينى من أجل أولادى الخمسة . . ومن أجل زوجى المسكين»، وكانت برغم الخطر والآلام تبدو حلوة القسمات، فاتنة الوجه، ولم تستطع الأزمة أن تمحو جمال ربيعها الخامس والثلاثين، أو تطمس ملامحها، وكانت ترافقها امرأة عجوز أخذت تبكى فى صمت وعلمنا أن هذه المرأة هى أم زوجها- حماتها- وكانت تضرب كفًا بكف، وتطوح رأسها، وتولول بصوت خافت . . .

وسألت الطبيبة:

- «أين زوجها؟ . . » .

قالت العجوز:

- «إنه يعمل بعيدًا فى قلب الصحراء مع إحدى شركات التعدين ولا يعود إلينا إلا أسبوعًا كل شهرين . . إنه يشقى من أجل لقمة العيش . . » .

كان واضحًا أن الأمل ضعيف . . ومع ذلك فقد أخذت الطبيبة تحقنها بأدوية منشطة لعضلة القلب، مع بعض العقاقير الضرورية

الأخـرى، لكن الحـالة لـم تتـحـسن، والـدم النازف لـم يتـوقف، والمسكينة تقع فى غيبوبة ثم تفيق منها لوقت قصير، لكى تقع فى غيبوبة أخرى. . .

المعركة دائرة بين الحياة والموت. . لكن الموت حسبما ترى الطبيبة يزحف بقوة. . ويسيطر على الموقف، والحياة تبدو كالشمس الآفلة التى تنحدر فى حزن نحو مثواها الأخير. . وشعرت الطبيبة بحزن بالغ هى الأخرى. . العشرات يموتون. . . لكن نفيسة المستسلمة اللاهثة الوحيدة النازفة قد أثرت فى قلبها أيما تأثير. . وتساءلت الطبيبة بينها وبين نفسها. . لماذا لم تسمع نفيسة نصيحة الأطباء من قبل وتحدد نسلها لمرضها؟ إن عندها البنين والبنات. . عندها ما يكفيها. . ألم يكن من الأفضل لها أن تنجو بحياتها، كى ترعى أطفالها، وتنعم بقدر من الراحة والطمأنينة. . لماذا لم تأخذ نصيحة الأطباء مأخذ الجد؟؟ لكن لا فائدة من العتاب والملام. . لقد انتهى الأمر، وها هى نفيسة تواجه الموت عزلاء من أى سلاح. .

وجاء الليل. . وهدأت الحركة قليلاً فى المستشفى. . ونفيسة راقدة على فراشها دون حراك، لم يعد هناك سوى أنفاسها اللاهثة. . . حتى الدم النازف توقف عن النزول. . والمرأة العجوز جلست على الأرض الباردة الملساء العارية وأخذت تصلى بعد أن غطت وجهها بشال أبيض. . لكأنها كانت تودع المسكينة الوداع الأخير وتتشهد على روحها. . .

وفجأة هبت المريضة من نومتها واستوت جالسة على سريرها وفتحت عينيها عن آخرهما، وصرخت بأعلى صوتها وقد جلست القرفصاء. . أهى صحوة الموت الأخيرة؟؟ وشدهت الطبيبة وهى ترى هذه الحركة المفاجئة. . من أين أنت «نفيسة» بهذه القوة التى جعلتها تتحرك وتنهض وتجلس هذه الجلسة؟؟ وقبل أن تتحرك من مكانها. . صرخت نفيسة صرخة أخرى، فوثبت الطبيبة نحوها. . لترى. . إنها لا تكاد تصدق عينيها. . لقد وجدت الطفل قد خرج إلى الحياة وتكوم على السرير وأخذ يصيح الصيحة الخالدة. . وتلقفته الطبيبة. . ولفته فى أردية وأربطة نظيفة، ونقلته إلى غرفة الرعاية الخاصة بالأطفال. . كان على أحسن مما يرام. . سبحانه ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١].

ونظرت الطبيبة إلى نفيسة. . يا إلهى. . إنها تستلقى من جديد هادئة. . الفرحة تكسر وجهها. . والرضا والإيمان ينبثقان من عينيها. . ولهاثها قد خفت حدته. . وهدأت كثيراً ضربات القلب الهائج. . . وسمعتها الطبيبة تقول:

«الحمد لله. . .».

وغمغمت الطبيبة قائلة: «نعم. . إنها قدرة الله. . لم أكن أتصور أن تشرق عليك شمس الغد. . .».

الفهرس

الدكتور نجيب الكيلانى

- أدب الأطفال فى ضوء الإسلام .
- أرض الأنبياء .
- الإسلامية والقوى المضادة .
- الإسلامية والمذاهب الأدبية .
- الذين يحترقون .
- اعترافات عبد المتجلى .
- امرأة عبد المتجلى .
- أهل الحميدية .
- حكايات طبيب .
- حكاية جاد الله .
- حمامة سلام .
- حول الدين والدولة .
- دموع الأمير .

- رأس الشيطان .
- الربيع العاصف .
- جاد الله .
- رجال ذئاب .
- الرجل الذى آمن .
- رحلتى مع الأدب الإسلامى .
- الصوم والصحة .
- الطريق الطويل .
- طلائع الفجر .
- العالم الضيق .
- عذراء القرية .
- عمر يظهر فى القدس .
- عند الرحيل .
- فارس هوزان .
- فى الظلام .
- فى رحاب الطب النبوى .
- قاتل حمزة .